



الواسطة في سرقة أموال مالطة

أحمد فارس الشهبان

الواسطة في معرفة أحوال مالطة

تأليف

أحمد فارس الشدياق

المحتويات

٧	الواسطة في معرفة أحوال مالطة المشهورة
٩	فصل في تخطيط مالطة معرباً
١٥	فصل في هواء مالطة ومنازها وغير ذلك
٢١	فصل في فاللة قاعدة جزيرة مالطة
٣٥	فصل في عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم
٤٩	فصل في الإنكليز وحكومتهم بمالطة
٥٥	فصل في موسيقى أهل مالطة وغيرهم
٦٣	فصل في لغة أهل مالطة

الواسطة في معرفة أحوال مالطه المشهورة

لصاحب الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحصى كل شيء كتاباً، وأعد للمتقين جزاء حساباً، وألهم ابن آدم أن يضرب في الأرض ويکدح لنفسه كدحاً، ويجوب مناكب البلاد ويسعى ليدرك نجحاً، والصلة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت آيات نبوته الناظرين، وبزغت شمس دينه فأفل منها سها الكافرين، ونادى بالحق فزهق الباطل وأمحى طلله، وأنذر فأرعب وبشر فأرحب وطاب مقاله ومقوله، خير من دعا وأمر، ونهى وجزر، ووعد فأنجز، وقال أطيب أو أوجز، وأرشد فهدى، وأجدى من اجتنى، صلاة وسلاماً دائمين، متلازمين متلائمين، وعلى آله وعترته، وأصحابه وعشيرته، ما سرى الساري، وطلعت الدراري.

«أما بعد» فإن الأسفار طلما ذكرها الذاكرون، وبالغ في وصفها الواصفون، فمدحها من علت مروعته، وسمت همته، وذمها من قصر عنها، ولم يجن منها، فمنهم من شبه أصحابها بدر إن لم ينقل لم يكن في التيجان منضوياً، وبهلال إن لم يسر لم يصر بدرًا مشهوداً، ومنهم من زعم أنها الحاملة على الذل، المضيعة لحسب المرء والموقعة له في الضل، والخمول وعدم الشكل، وإن الشيء إنما يرزن إذا كان في مستقره، حتى عرّفوا الظلم أنه وضع الشيء في غير مقره، ومعلوم أن محل العرب مباین ل محل العجم، فكأن أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم، إلى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات، كما جرت بذلك عادة البلوغ في المحاورات؛ إذ كل حكم وقضية من القضايا الجارية أطالوا فيها المقال،

وجالوا فيها من حيث لا مجال، كاعتزال الناس والانفراد عنهم، والمخالطة لهم والأخذ منهم، فبعضهم آثر الأول، وود لو يقضي عمره على قنة جبل، وبعضهم شبهه الزحام، بمنهل عذب الذي الأواب، وأمثال ذلك لا تحصى، ولا تعد ولا تستقصى، فكان الركون إلى ما قالوا، والمعول على ما فيه جالوا وأطالوا، غير هادٍ وحده سبيلاً قويمًا، ولا شافٍ كليماً، إلا إذا امتحن الناقد الليبي بنفسه أي الفريقين أصدق قيلاً، وأهدى سبيلاً، وأطلع على ماذا حملهم على الذم والقبح، والثناء والمدح، وماز المعلم من المجهل، والحالي من المعطل، فهو حينئذ خبير وأي خبير، غير مفتقر إلى ناصح منهم ومشير، والحاصل أن لكل أمرئ شأنًا يعنيه، ومطلباً هو مقتفيه، وأن ما قضى الله يكون، سواء أذم الذامون أم مدح المادحون، هذا وقد كنت في عنفوان شبابي، وجدة جلبابي، وأزهار سنّي، وازدهار ذهني، لهجا بالسفر والاغتراب، والترحل عن الوطن والأصحاب، إلى بلد ينضر فيه غرسي، وتطيب فيه نفسي، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبساً، وألقى إذ الدهر لي موحش خليلاً يصادقني مونسّاً، حتى أدىتنى أعمال حابطة، إلى جزيرة مالطة، فألفيتها لا كما أملت، وكابت منها ما لا يفي بما عنه ترحلت، فعن لي أن أظهر ما بطن منها، وأكشف مخبأها لمن رغب فيها أو عنها، فألفت فيها كتاباً سميته «الواسطة في معرفة أحوال مالطة».

فصل في تخطيط مالطة معرّباً

اعلم أن تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة و٤٤ دقيقة من الطول، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض، أما موقعها في الكرة فإن بعض الجغرافيين أطلقوا بـ«أفريقيبة» بالنظر إلى المكان، وبعضهم أطلقه بـ«إيطالية» بالنظر إلى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم، والمراد بذلك أنها من أوروبا، فمن حقيقة بـ«ثولومي»، ومن حقيقة بأوروبا بلينوس وسطرابوس، ولديلهم على ذلك كونها على بعد ستين ميلًا من رأس باسرو، وعلى مائتين من كلبيه نومينا أركولي، والمحل الأول أقرب إلى أوروبا، والثاني أقرب إلى أفريقيا. قال: فأما عرضها فاثنا عشر ميلًا، وطولها عشرون، وبروتها ستون، وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فاللة.

فأما في الأعصر السالفة فكانت نوتايبلي، ويقال لها الآن المدينة، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها، وكان الجزيرة منقسمة بها إلى شطرين: أحدهما يمتد جهة الشرق والآخر جهة الغرب، والذي بنى فاللة كان أحد أمراء الإفرنج، وسماهما باسمه، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس. قلت: زعم بعض المالطيين أن أصل هذه الكلمة شبر الرأس وبعضهم أنها جبل رأس، وعندني أنها شعب الرأس. قال في الصحاح: «شعب الرأس شأنه الذي يضم قبائله». ا.هـ. وهو كنایة عن أصل الشيء ومجتمعه كما أن قبائل الرأس مرجعها إلى الشعب، ويحمل أنها سميت بشعب الرأس؛ لأن أهل مالطة إذ ذاك كانوا يناسبون المسلمين الحرب والثأر، وكل فريق ملاقي من فريقه ما يшиб الرأس، وذكر بوليه المؤلف الفرنساوي أن قاعدة هذه الجزيرة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ولد في سنة ١٤٩٤ ومات في سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالباس والإقدام، وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرتها المسلمين بها برج صانت ألوه ثم قوى عليهم، وأخرجهم منها. قال المؤلف: ثم خلفه باولو دل مونتي

فأتم بناءها في الثامن عشر من أيار، وذلك في سنة ١٥٧١ وقبل بنائها كان مقام الزعماء المنتسبين إلى طريقة مار يوحنا في برمصة والبرغو بشرقي فالطة، ويقال للثانية فيتور يوزا أي المنصورة لحرب انتصر فيها أهل مالطة على المسلمين، وذلك في سنة ١٥٥٦، قال: وفي ضواحي هذه المدينة قرية اسمها الفلوريانة، وهي أعمى جميع قرى الجزيرة، وجملتها أربع وعشرون قرية، وهي جديرة بأن تسمى أمصاراً؛ لكثره سكانها وحسن بنائها وكنائسها، وعدد أهل الجزيرة كلهم نحو ١٢٠٠٠ نفس، ولفالطة مرسيان؛ أحدهما: كبير يعد من أعظم المراسي، وذلك لسعته بحيث يسع عدة بوارج مع الأمن، ولكونه في وسط بحر الروم فمن ثم كانت الجزيرة بهذا الاعتبار أعظم محل للتجارة على أن تلك المخازن العديدة والشئون الرحيبة المبنية عند هذا المرسي تغري الظاعن والمقيم بتعاطي التجارة فيها، والثاني: صغير، وهو مرسى المراكب التي ترد من البلاد المشوبة باللوباء، ويقال له مرسا مشطو محرفة عن مرسى الشط. أما هواء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير أن أرضها صخرة لا تصلح من أصلها للحرث، ومع ذلك فإن السنبلة الواحدة تخرج في تربتها التي ليست بالطيبة ولا الرديئة ست عشرة سنبلة أو عشرين، وفي عام الخصب ثمانين وثلاثين، وفي الجيدة إحدى وستين، وأخص أصناف غلالها التي يتجر بها القطن، وقد يبعث منه إلى جهات مختلفة في أوروبا مقدار جزيل، إلا أن بخس ثمنه رغب الأهلين عنه إلى غيره فصاروا يصرفون همتهم في تربية التوت، فإن فيه نفعاً كبيراً، وقد علم بالتجربة أنه يتحصل منه حرير أعلى من حرير إيطاليا. قلت: وقد علم بالتجربة أيضاً أن دود القرز لا يعيش في هذه الجزيرة، والمؤلف إنما كتب هذا عند الشروع في تربية التوت. قال: وفي هذه الجزيرة تنمو الأشجار المثمرة لأصناف الفاكهة الطيبة كالرمان، والتفاح، والعنب، والأجاص، وأعظمها الأترج.

فأما عدد الأهلين الآن بالنظر إلى صغر الجزيرة فإنه عظيم جدًا، ولم يعهد من قبل قط أنها كانت تحوي هذا المقدار، وإنما يعلم أنها كانت مأهولة بأسرها إلا أن بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من الآثار الباقيه، وما وصل إلينا من أسماء بعض قرى لا وجود لها، وسبب ذلك فيما قيل أن الملاطيين حين كانوا تحت سلطة الأرجونيين وجدوا أنفسهم عرضة لغزو المسلمين المتتابع، وللهجوم لصوص أفريقية، فجعلوا مقرهم شرقى المدينة صيانة لعرضهم وماليهم وأخلوا الجهة الغربية، وذكر بعض الجغرافيين أن مالطة كانت تسمى في القديم هيربرية، وقال بعض إنه لم يوجد في بلاد أوروبا جزيرة عرفت بهذا الاسم، وإنما هو اسم مدينة قديمة في صقلية،

ثم عرفت أخيراً باسم كامرين، ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها أوجاجية، وسموها اليونانيون مليئة، واشتهر ذلك في سنة ٨٢٢ قبل الميلاد، وسمها المسلمون مالطة، ومعنى مليسة أو مليطة في لغة اليونان النحل، وزعم قوم أنها سميت باسم مليطة ابنة دوريس على جهة التعظيم، وهو مشتق من ميلت في السريانية، وهو اسم إله، ويعرف في غيرها بجونو، ولا يبعد أن يكون ذلك أيضاً في اللغة الفينيقية.

قال: وروى بعض المؤرخين أن بناء مدينة فوتايبيلي كان بعد الطوفان بنحو ١٤٠٠ سنة، وأعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصارى هيكل جونو، وأبروسربين، وهركوليس، وأبولو. فموقع الأول هو بين فيتوريوزة وصانت أنجلو. ويحكي أن ملك نوميدية الذي كان دأبه غزو مالطة كان قد أخذ منه قطعة بديعة من العاج وأهداها إلى أستاذه ففرح بها أولاً غاية الفرح، ولكن لما علم أنها أخذت من الهيكل ردها إلى الملك، والتمس منه أن يعيدها في محلها، وموقع هيكل أبروسربين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجده في آثار، وموقع هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسي سيروكو «أي مرسي الشرق» وهو من بناء الفينيقيين وقد وُجد فيه آثار كثيرة، وموضع هيكل أبولو عند نوتايبيلي وهو بناء الإغريقين، وكان ذا رونق عظيم، ويقال إن جملة ما أنفق في بنائه بلغ سبعمائة وتسعين سترسيباً، وقد علم ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام، ووُجد أيضاً آثار حمام في محل اسمه قرطين، وممن ذكر حكومة مالطة من الشعراء الأقدمين أوميروس، وأوقيديوس، ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها الفياكنس هم أول من استوطنا هذه الجزيرة، وكانوا ذوي قوة وبأس، ثم خلفهم الفينيقيون whom من جهات صور وصيدا، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد، وكانوا أهل سعي وكسب وتجارة، فلبثوا فيها نحو أربعين سنة حتى تغلب عليهم الإغريق، ثم سلموها للقرطاجيين وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد، ثم جاء من بعدهم الرومانيون في سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور، فأفروا فيها أحکامهم وسننهم، وأعظم ما حدث في دولة الرومانيين مما لا ينفي أن يحمل ذكره قدوم ماربولس، وانكسار السفينة به وبين كان معه وذلك سنة ٥٨ للميلاد في عهد القيس طيباريوس في موضع يقال له الآن خليج ماربولس، ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة، ثم بعد انقراض دولة الرومانيين منها استولت عليها قبيلة الفندلس ثم القوثر، ثم تغلب على هؤلاء البليساريون وطردوهم منها، وألحقوها بحكومة البلاد الشرقية، وبقيت كذلك إلى سنة ٧٨٠ فأخذوا في هضم الرعية، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة لل المسلمين.

قلت: ذُكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القировان أن مالطة فتحت في أيام أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، توفي سنة إحدى وستين ومائتين، وإنما لقب بالغرانيق؛ لأنه كان مشغوفاً بالصيد، روي أنه بنى قصراً في السهلين لصيد الغرانيق، أنفق فيه ثلاثة ألف دينار، فكني بهذه الكنية وكان في غاية الجود إلا أنه غلب عليه اللهو والطرب والأكل والشرب، ولم يزل مقيناً على لذاته طول عمره، انتهى. فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف «وسلموا الجزيرة لل المسلمين». قال: ثم قام الأمير روجر النورماني بعدها بمائتي سنة واسترد الجزيرة، وألحقها بصفلية، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة، لما تزوج القيصر هنري السادس قيسير جermania ولية عهد صقلية؛ دخلت مالطة في حكمته وذلك سنة ١٢٦٦، وبقيت كذلك اثنين وسبعين سنة، وفي أثناء ذلك ولد لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معًا، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراجوني، ثم آل أمرها إلى الملك كارلوس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام مار يوحنا برضى الأهلين واتفاق دول أوروبا، وكان قد جرى هذا النظام عندهم أولاً، ثم لما نبغ نابوليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للأهلين في التصرف بحقوقهم، إلا أن الفرنسيس لم يلبثوا أن هتكوا بعض السنن القديمة، وانتهكوا حرمة الكنائس فحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخلُ عن سفك دم كثير منهم وعن تلف أموالهم إلى أن أتت الإنكليز فسلموها لهم وكان ذلك في سنة ١٨٠٠.

قلت: لما دخلها نابوليون وجد فيها ألفاً ومائتي مدفع، وما مائتي ألف رطل من البارود، وأربعين ألف بندقية، وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين، فأطلقهم بذلك في سنة ١٧٩٨. قال: فأما أخذ المسلمين لها فإنه كان من باب المصادقة أولى منه من المغالبة، وعاملوا الأهلين أولاً بالرفق والميسرة، ووقدروا سنتهم وأحكامهم، وامتزجوا بهم للغاية حتى كان الجيلين واحداً كما يتبيّن ذلك من بقاء لغتهم فيهم.

قال: أما لغة مالطة فذهب بعضهم إلى أنها عربية فاسدة، وذهب آخرون إلى أنها فينيقية؛ لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقين؛ بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم، وما برأحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها، وأنها لم تتغير في مدة القرطاجيين؛ لأن لغة هؤلاء أيضاً كانت فينيقية، ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقيهم والسلوك بسننهم أياماً ملکوا، فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم، والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربراً، ولم يكن يطلق هذا الاسم إلا على من جهل اللاتينية واليونانية. قال ثم

بقيت في دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير، وإنما دخل فيها بعض الفاظ أجنبية، ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض الفاظ منها لغتنا نحو بير وصيد فإنهما في الفينيقية برصد، وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا اللغتين، والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية، وإن كانت قريبة من هذه أيضاً. قلت دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت، فإن البير والصيد ينطق بهما في لغتهم كما في لغتنا سواء ما عدا موافقتهما في تصريف الأفعال والأسماء، وفي الضمائر، وغير ذلك من أساليب الكلام كما سيأتي بيان ذلك.

ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالطية وإن كانت لغته، ويتعرض للحكم والاستدلال، فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله، وكيف يقول أولاً إن لغة المسلمين بقيت في أهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين، ثم يقول الآن إنها فينيقية مجرد وجود كلمتين فيها، وإنما حمله على هذا بغضته وبغضه أهل بلاده للعرب، وتبرئه أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقين؛ إذ كان هؤلاء كما ذكر أرباب جد وتجارة، والعرب عند أهل مالطة كانوا عن الهمج؛ وذلك لجهلهم التواريχ، ولأنهم لا يرون الآن إلا صعاليك المغاربة، والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن كالذين كانوا في صقلية وغيرها، فإني لم أجده فيما قرأت قط من كتب الأدب والتواريχ: قال الماطلي، والسيوطى — رحمة الله — لم يغادر في كتاب الأنساب الذي سماه لب اللباب أحداً من أهل العلم إلا وذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة. قال: أما جزيرة غوش وتسمى بالإنجليزية كوتزو، فزعم بعض أن هذه اللفظة يونانية، ومعناها مركب مستدير، وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة، وطولها اثنا عشر ميلاً في عرض ستة، وأهلها نحو خمسة عشر ألفاً، وجملة قراها ست، ومدينتها تسمى الرابط «كأنه محرف عن البيض»، وفيها آثار قلعة قديمة، ويقول الجزيزة وفاكهتها طيبة جداً، وكذا عسلها حتى إن الأقدمين كانوا يفضلونه على عسل جبل هيلا، ويرد منها إلى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهـة، والبـقل، والـسمـك، وحـكومـتها مـلحـقة بـمالـطـة، وكـذا كـانتـ فيـ الزـمنـ القـديـمـ، وزـعمـ بـعـضـ أنـ مـالـطـةـ وـغـوشـ وـكمـونـةـ كـانـتـ فيـ الأـصـلـ جـزـيـرـةـ وـاحـدـةـ، وـحدـثـ لـهـاـ منـ الزـلـازـلـ ماـ فـرقـهاـ (انتـهىـ المـنـقـولـ منـ كـتـابـ مـخـتصـرـ أـلـفـهـ مـكـلـفـ فيـ تـارـيخـ مـالـطـةـ).

وأقول: قد رأيت جزيرة غوش غير مرة، أما اسمها فأظنه محرفاً عن لفظة الهوج، سماها به المسلمون لشدة شبهها به، كما سموا الجزيزتين الآخريين كمونة وفلفلة لصغرهما، إلا أن أهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به أهل

مالطة، ولا أعلم في لغتهم كلمة غيرها قلبت فيها الهاء غينًا، فأما قلب الجيم شيئاً فكثير، أما أرضها فأحسن من أرض مالطة، ولا سيما كون حقولها مكتشفة للنظر كحقول فرنسا وإنكلترة لا كحقول أهل مالطة كما يأتي، وهي أزكي ثمراً ونباتاً، وأهلها أخلص طوية، وفيها الحمير والبغال ضليعة لكنها غير فارهة، وربما بيع الحمار منها بأربعين ليرة، أما شجرها فإن التفاح لا يكاد يكون أكبر من العليق في الشام، وشجر التين منبسط على الأرض، وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة، وفيها أيضاً نخلة لكنها لا تثمر، وأسماء قراها ومواقعها كلها عربية محضة، ومما أضحكني من خرق أهلها أنهم يدرسون القمح على البهائم من دون نورج، وذلك بأن يربطوا مثلًا كل زوج منها في قرن، ويمشوهما على السنابل، فيثور هذا ناحية وذاك أخرى، وكذا هي في مالطة، ومن غرابة أرض غوش أن جميع محالها مزروعة محروثة إلا ما قابل مالطة، فكأنه من قبيل مراعاة النظير، أما كمونة فليس فيها سوى بيت واحد وكنيسة، وأرضها قليلة الجدوى.

فصل في هواء مالطة ومنازها وغير ذلك

إنما قدمت هذا الفصل من كلامي؛ لأهميته، فإن العافية خير ما ملك الإنسان، وأن أرضاً لتأكل من نازلها لجدية بأن لا يؤكل منها. فأقول: قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة، وبقى الآن الكلام على هواها من حيث هو هو فإن الهواء لا يعرف غالباً من مجرد نسبة الموقع، أما اشتقاد اسمها إن كان عربياً فمن م ل ط، ومعظمها يدل على التجرد والخلو، أو التجريد والإخلاص، ف تكون قد سميت بذلك؛ لخلوها عن الغياض، والجبال، والأنهار، وغيرها، وفي القاموس: ومالطة كصاحبة «أي بلد»، وكان عليه أن يذكر خصوص كونها جزيرة، فإنه كثيراً ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك، فأمام قوله أولاً ملطاً شعره حلقة، ثم قوله بعد فاصل: والأملط من لا شعر على جسده، وقوله في أول الماده: الملط الخبيث لا يُرفع له شيء إلا سرقه، ثم قوله عند الآخر: وامتلاطه اختسه فمن اختلاط الترتيب في التركيب.

ومن ذكر مالطة أيضًا المطران جرمانوس فرحتات في كتابه المسمى «باب الإعراب عن لغة الأعراب» قال: «ومالطة جزيرة عاصية متخاصمة قرب صقلية سكانها لخصوص البحر». قلت: لعل تأليفه هذا الكتاب كان قبل سفره إلى رومية وإلا لما قال متخاصمة، أو أنه جاء بها للمجانسة، أما قوله: سكانها لخصوص البحر فينبيء بما كان لأهلها حينئذ من الشهرة الديمية عند أهل المشرق، وكأن هذه الصفة كانت غالبة عليهم حتى أنسنه أن يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية، فأما الصحاح فذكر ملطية في بلاد أرمينية، والآن تعد من الممالك العثمانية.

أما هواء مالطة فلا يحمده من ألف البرور الواسعة؛ لأنه كثير التقلب، فيختلف في الليل والنهار عدة مرات، فقد يكون في الصباح صحو فلا تشعر إلا والغيم قد طبق أعنان السماء، فيكهر الجو، ويهيج البحر، وتثور الزوابع، وتزمر الرياح فترقص لها الأبواب؛

بل قد يكون في النهار برد وفي الليل حر هذا في الشتاء، فاما في الصيف فلا ترى في الجو لطحة سحاب ولا غاربة أصلًا، وفصل الشتاء يبتدئ فيها من شهر تشرين الأول، وينتهي إلى أيار، والباقي صيف شديد، وإن وقع في خلال ذلك يوم معتدل فتأتي فيه نفحة من الريح باردة وأخرى حارة، أو تكون النعور وهي من الرياح ما فاجأك ببرد وأنت في حر أو عكسه، وفي الجملة فإنها جديرة بأن تسمى مخزن الرياح فهي لا تخلو منها باردة كانت أو حارة، وأكثر رياحها في الصيف السافية تأتي بغيار وتراب دقيق تطيره على وجوه الناس، وتدخله في الديار من خصاص الزجاج. ومن الغريب أن الريح الشرقية التي تكون في الشتاء زمهريراً تصير في الصيف سومماً فتتشقق بها أخشاب المنازل، وهي مصبوغة وتصرصر بها روافد السقوف، ويجف بها الزجاج، ويتصلب فيكسر بأدني مس، ويقرمد بها الجلد والورق، بل يتآثر بها الحديد، والنحاس، والعظم ونحوه، وبينن شمع الشحم فتكون الشمعة في البيت كالجيفة، وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة فيقضى الومد حينئذ بالباس الخفيف من الكتان، وبالنوم من دون غطاء، وأكثر أهل مالطة ينامون ليلاً على السطوح؛ لكون سطوح ديارهم غير مسننة بخلاف الديار في أوروبا، وإذا مشى الإنسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه، ثم لا يلبث أن تلفحه لفحة من الريح، فينبغي أن يكون أحذر من غراب هذا.

ولما كانت أرض الجزيرة خالية عن الأجم والغياض والجبال والأنهار؛ إذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر، فمتي أصابتها الشمس مساحتها مسحًا على السواء فلا ملطا فيها من شيء، وربما زاد حرها أيضًا بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية ومع قربها من إيطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس، وليس في شيء منها مياه جارية كديار الشام، ومن جملة الأسباب التي تجعل شتاها عارمًا مكرورًا كون بنائهما من حجر رطب لو جعل في مقمة بضع سنين لا كلًا، وحين يستخرج أولًا من مقطعه يكون أخضر مائياً، ولا يبيض إلا إذا نصب للهواء والشمس سنين، ومن خواصه أنه قابل للنقش، فلهذا ترى منه في الديار والكنائس نصمات شتى، وقد يُبعث منه على سبيل التجارة إلى جميع البلاد، وكثيراً ما تتوارى الشمس في فصل الشتاء، فلا تطل فيه ولا من شباك، فأين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشيع غاربة، وفي الصيف يطفو نيلها فيرطب الأرض، وينتظم به شمال الأحباب، وعقود المسرات. وإذا اتفق في مالطة يوم صحو في الشتاءرأيت الناس جميعاً يعددون محاسنه ويصفونه ويلهون عن سوء أيامهم الآخر حين إذ الرياح تأخذ بناصية السائر، والمياه تهطل من أنف كل سحاب، والزكام ملازم للأئوف، والسعال

قابض على الحلق، وأشد ما يسوء منها استمرار الرياح أياماً متواتلة من دون مطر فإنه قد يأتي عليها من السنين ما لا يغزره المطر والرياح مع ذلك لا تهدأ أصلًا، وقد احتاجوا في بعض السنين إلى الغيث غایة الاحتياج حتى فرض عليهم أسفه دعاء للاستمطار في الكنائس مع الصيام، والريح مع ذلك تزيد عصوفاً، فقلت:

ولما لم يطق كانون قطراء
تولى وهو يحبق بالرياح
فيما قوم اغسلوا بالدموع فيه
وجوهكم وصوموا عن سفاح

وفي الجملة فإن صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان يهجمان بعفة، فآخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف، فليست كمصر والشام فإن الإنسان فيهما يتعدى على تخالف الفصول شيئاً فشيئاً، وليس من علامات الربيع شيء بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهي آفة من الآفات، ولا من علامات الخريف سوى تناثر أوراق الشجر المعدودات، ومع ذلك فإن كثيراً من الإنكليز يأتون إليها ليقضوا فيها الشتاء، أما عدم المطر فيها في رطوبة، ولعل الأدوية والعقارب التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية، ويزول ما بها من الخاصة فإن التبغ والنشوق والخمر إذا بقيت فيها زماناً يزول طيبتها رأساً؛ لأن مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ند كما مر، فإذا وضعت مثلًا ملحاً في خزانة لا يلبث أن يندى كأنه خلط بالماء، وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات إذا وضعت في مخدع من خشب مصبوغ، فإن النداوة تسري إلى الصبغ، ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعاً في مالطة وقل من يسلم منه، وقد أصبته به أول سنة فكنت أقوم في الصباح موجع الأعضاء لا أنشط إلى شيء، وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزمت الفراش، فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل أخبرني بالسبب، فعظم عليَّ ذلك، ثم لما سمعت بأن أكثر الناس ممنيون به هان عليَّ ما لاقت، وتأسست بهم، ودواء هذا الداء الإقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها، وقد كان يعلو كتبى من أثر النداوة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض. ومن جعل مرقده قرب حائط فلا يأمن غاللة صداع أو وجع أسنان، ومن يكن ذا علة في صدره فأعظم خطر عليه التعرض للريح بعد أن يكون في محل دفع، مع أن الغالب على أهل مالطة الشدة والقوة غير أنهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان، ومما توصي به الأطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانله صيفاً وشتاءً، أما في الشتاء فللدفع، وأما في الصيف فلتتنشيف العرق

ومنع ضرر الريح النافذة في المسام حتى إنهم يخشون من الريح على الحيوانات فإنهم إذا أوقفوا الحصان في سيهه أدروا وجهه إلى غير جهة الريح وقس على ذلك.

أما أرض مالطة فإنها ملطة صخرة جراء قليلة الشري والشجر والنبات، ودائماً كلها صخر لا ينبع فيها شيء إلا أنه لشدة اجتهاد أهلها وفرط كدحهم ينبع فيها أكثر أصناف البقول والفاكهة، لكن غلتها لا تكفيهم أكثر من أربعة أشهر، والباقي يجب إليهم من بلاده، فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد الترك والروم، ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية، والبقر والضأن والزيت من أفريقيا، وهلم جرا. وزعم بعض أن ترابها مجلوب في الأصل من صقلية، وترى شجر الخرنوب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الشري أعز من شجر الجوز في الشام، أما شجر الخرنوب فيكون لاصقاً بالأرض كأنما هو أزرار، وأما الصبار فتراه محوطاً بالجدران العالية كأنما هو حديقة، وينوطون بكل منها ورقة من الثوم منعاً لإصابة العين مع أنها مما تنبو عنه العين، وإذا سألت أحدهم عن قلة الغياض عندهم قال: نحن معاشر الإفرنج لا نصرف همنا إلا إلى زرع الأرض، فما أقل ظلهم وأكثر ظلمهم، وإنما ضحيت إلى الخلاء وجدت بين كل حقولين جداراً عالياً لاحتجز رؤية ما دونه فأين هذا من سهول فرنسا وإنكلترة البارية للعين على نصرتها وريعها، وعلى كثرة ما فيها من أكاديس الغلال والعشب من دون ناطور يحفظها أو حائط يسترها.

ويوجد في مالطة أكثر أصناف الأشجار المثمرة والبقول المأكولة، وفاكهتهم طيبة في الجملة إلا الليمون الحلو وقبض السكر والخيار، فأما الصبار فأكثره نوى، وكذا الرمان، وأكثر الفاكهة بيعاً فجأة، وقلما يدعونها تنضج خوفاً من اللصوص أن تسرقها، وجميع أصنافها أرخص منها بمصر. والتين على أصناف متنوعة، والعنبر لا يدوم أكثر من ثلاثة أشهر، أما البردقان فإنه يدوم نحو سبعة أشهر، ويرسل منه إلى بلاد الإنكليز وغيرها كالظرفة. فاما ما يأتيها من التمر من صقلية فإنما هو سداد من عوز، وعندهم من الفاكهة أصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولي، وهو حب أحمر صغير بقدر ثمر العليق حامض يصلحه السكر، وأآخر يقال له نصبي، وهو شبيه بالمشمش أو بعين البقر ونواه كبير، وأآخر اسمه زربي وهو أشبه بالزعور شديد الفجية، يجعلونه أعداً لأعذاق التمر، فينضج منه كل يوم حبات، ويدوم العذق بحملته أشهرًا، ولا يعرفون حفظ الفاكهة إلى أوان الشتاء كما يفعل في بلاد الإفرنج، فإن العنبر والتفاح في فرنسا وإنكلترة لا ينقطعان أصلاً.

أما بقولهم فغير طيبة؛ وذلك لكثره مائتها، فإذا رأيتها في السوق سرك نضارتها، ولكن متى طُبخت جاءت مسيحة حتى إن البصل والفحول وما أشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم، لا بل إذا جُلبت من بلاد أخرى يتغير طعمها، وكذا الكرنب والباذنجان ونحوه، ولا يكاد يبدو نوع منها إلا ويغلوط ويجسو، ومن الغريب أن نباتها مع كونه بهذه الصفة فعسلها في غاية الجودة، ومما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى والفتاء والملوخية، ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن، وإنما يجلبون نهاية هذا أحياناً من طرابلس الغرب، وأهل مالطة جمِيعاً يتقدرون منه ويطبخون إدامهم بشحم الخنزير.

أما ماوها فإنه ماء المطر مخزوناً في الآبار غير سائع فما شربه ذو تعب أو ظماء إلا وأصابه سعال، وكثيراً ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم، فشتان بينه وبين ماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظماء، ولا يزيد الشارب إلا صحة ونماء جسم، فلا ينبغي لأحد أن يشرب من ماء مالطة إلا ترشقاً. ونقل عن أرسسطو أن الماء الراكد الذي لا تقع عليه الشمس لا يكون إلا ثقيلاً، وتتولد فيه مادة طينية.

أما حادثها؛ فأشهرها حديقة صانت أنطونيو مقر الحكم في الصيف، وهي التي نزل بها الأمير بشير شهاب بأهله، أخلاها له الحكم إجلالاً لشأنه، وهي نصيرة حسنة الوضع إلا أنها في منخفض من الأرض، وليس فيها مقاعد أو مواضع ليأكل فيها المتفرج أو يشرب، وليس للمالطيين عادة أن يأخذوا إلى مثل هذه المنتزهات طعاماً لا في الأعياد ولا في غيرها اتباعاً لعادة الإنكليز؛ إذ لا يمكن لهم الجلوس إلا على كرسي، فغاية حظهم من ذلك إنما هو المشي أو أن يضع أحدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان خلياء، أو أن يمشي وحده وهو يصرفر ويتمكوا، وعلى تقدير وجود رصف عندهم أو روضة فلا يعرفون كيف ينبعطون عندهما سوى بالمشي، وأعرف رصفاً يسمى البياتا أنيقاً جداً ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للمثلوج، ولا مطعم ولا آلة طرب، ولا كرسي يجلس عليه، ولو كان مثله في باريس أو في مصر أو الشام لرأيته من أوله إلى آخره مرصوفاً بالكراسي والمتكاث، ومشتملاً على كل ما تطيب به النفس، وفي الجملة فإن الإنكليز والمالطيه جمِيعاً لا ذوق لهم في مثل هذه الأمور.

ثم البوسكت ومعناه الغيضة، وهو على بُعد ثلاث ساعات من فاللة، وهو سيء المنحدر قليل الجدوى، فإنه عبارة عن شجرات معدودات وزهرات شاعت لا صنعة في تنبيتها إلا أن فيه قبوة فيها عين نضاحة، وحولها مائدة ومقاعد من حجر يقعد عليها

الأكلون، فهذا الموضع أنزه موضع في الجزيرة، وذاك الماء أعدب ماء بها، وبقربه برج كان في القديم سجن يُعذَّب فيه من يخالف الكنيسة كما كانت العادة أيضًا في إسبانيا وغيرها. ثم المطلب وهو أنضر من البوسكت وأبعد؛ لكونه عند أقصى مالطة طولاً، وفيه بركة يعلو ماءها طحلب، وكأن الموضع سمى به، ونوعاً يسمونه نحو نوعاعير الشام ومصر، وأهل تونس وطرابلس يستعملون السانية، وهي في اللغة الناقفة يسوقى عليها، ويطلقونها على البستان.

والحاصل أن جزيرة مالطة لا تعجب من الإفرنج إلا القليل، وذلك لأنهم إذا جاؤها لم يجدوا فيها شيئاً غريباً لا يوجد في بلادهم، فإن كل ما فيها إن هو إلا نهاية ما عندهم. هذا وليس منهم من يرغب في علم اللغة المالطية؛ إذ كانوا يعلمون أنها عربية فاسدة، وليس فيها من الصنائع والفنون ما يجهله أهل الرستاق منهم فضلاً عن المتمدنين، وإنما هي مجاز يجوزون منها إلى الشرق، نعم إن بعضًا من المظلومين في إيطاليا وخصوصاً سقلالية يأتون إليها للاستئمان، وإنها لما كان موقعها بين عدة بحور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة، ولا سيما الآن فإنه قد يتذرع السفر إلى بعض جهات الشرق من دون المرور بها.

فأما العرب فربما لا تعجب منهم أحداً، وذلك لأن أهل مالطة جميعاً يكرهون جنس العرب والمسلمين على الإطلاق، ومنتهى الذم عندهم أن يقولوا عربي بسكون الراء على أنها في جميع لغات الإفرنج بالفتح، ولا يمكن أن يخطر ببالهم أن من العرب من هو ذو أدب وكياسة، بل لا يكادون يظنون أن اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين، وحيث كانوا يعلمون أن الإفرنج ينسبونهم إلى العرب زادت بغضتهم له، فما أحد من ألف الحظ في الحمام والبساتين والغياض والمواسم والتائق في المطاعم يترك بلاده ويتأثر إلى هذه الصخرة الصماء.

هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق أن يسمع الكلام المالطي على فساده، ومع كون هذه الجزيرة قريبة جدًا من تونس وطرابلس بما بها أحد منهما إلا عابر طريق. قال الشاعر:

وأصعب ما يلقى الفتى في زمانه إذا حل نجم السعد في برج نحسه
إقامته في أرض من لا يوده وصحبته مع غير أبناء جنسه

فصل في فالنته قاعدة جزيرة مالطة

هذه المدينة هي مقر الحكم الإنكليزي، وأعجب ما فيها حصانة أسوارها وحسن مرسيتها. أما الأسوار فربما كان نصف أحدها من صخر وتمامه مبني بناءً، وأما المرسى فقد مر ذكره، والغالب عليها الرونق والبهجة حيث كان بناؤها من الحجر كما مر وطريقانها مزجاجة، ولا سيما إذا عرضتها من بُعد، غير أنها خالية من المناير ونحوها، فهي بدونها كالهامة القراء، وأحسن ما يستحب من ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستو، فلا ترى فيها داراً خارجة عن الخط أصلًا غير أنها متفاوتة الارتفاع، وليس مرتبة في وضع الغرف والمساكن، فإن الدار الكبيرة تكون عبارة عن علية واسعة طويلة، ثم صف حجرات متراصة المدخل فلا يمكن للإنسان أن ينفرد بواحدة منها دون الأخرى. فأما الديار الصغيرة ولا سيما القديمة فهي خالية عن الترتيب أصلًا ومنجورها يصبح غالباً في كل سنة، وحيطانها ملبوسة بالورق المنقوش كما في بلاد أوروبا، إلا أن طاقاتها لا تفي بالمراد، فإن بين الأهلين حقوقاً في المطال، فلا يمكن فتح الطريقان في جميع الحيطان، وما عدا ذلك فإن لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء، وهي عالية لا يمكن لمن يكون في الحجرة أن يرى منها شيئاً إلا إذا كان واقفاً فيها أو جالساً على كرسي، وهي أشبه بما يسميه أهل الشام كشكًا، ويقال: إن وجود هذه الرواشن بمالطة هو أحد الأدلة على كونهم عرباً؛ إذ هي لا توجد في بلاد الإفرنج إلا في ما فتحته العرب منها، وربما كان في الدار الواحدة ثلاثة رواشن وقل أن تجد داراً ذات ثلاث طبقات صالحة للسكنى، والأغلب اثنان، وإن وجد فالثالثة إنما تكون للوازم الدار، وقل أن ترى فيها داراً مبلطة بالرخام حتى إن قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه، وإنما المستعمل في ديار كبارائهم البلاط المعروف، ولكن يدهنونه بالزيت مراراً بعد أن يُكشط وجهه فيصير له لون كالكهرباء، وكذلك قل أن ترى في الديار التي

تكرى خزائن أو مخادع أو رفوف، وإنما يلزم شراء ذلك على حدته، وليس فيها ولا في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق، ولا إسطبلات، ومن كان عنده فرس ربشه في الخارج، وأقل من ذلك المارات فإنهم يشترون مؤنتهم يوماً فيوماً، بل ربما إذا ادخروها فسدت كما تقدم، ويرون ذلك تخفيفاً للكفة، فإن صاحب العيلة إذا ربي في منزله الحيوان وخزن المؤنة واتخذ الخبز كان له ولأهله شغل شاغل، ولعل سبب ذلك في الأصل عدم انتقال الأسعار.

ومما يقبح ذكره هنا أن أكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيل، فيرفع أهلها أقدارهم في وعاء، ويقدفون بها في الطرق ليلاً، فيأتي الكناسون للطرق صباحاً ويزيلونها، وقد كانت العادة من قبل أن المحبوبين لجرائرهم هم الذين ينظفون الطرق بأن يخرج بهم شرطي وهم مقيدون، والظاهر أن المالطيين قبل مجيء الإنكليز إلى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيل، وإنما كانوا يستغفون عنها بثقوب ينقبونها في أسفل الدار، وكانوا غير محتاجين إليها أصلاً كما قال الشاعر:

من يكن عيشه كعيشك هذا فلتكن داره بغير كنيف

وَقَلَّ أَنْ تَوَجَّدْ دَارْ بِأَثاثِهِ وَفِرْشَهَا كَمَا فِي مُدَنِ الإِفْرَنجِ، وَمِنْ شُرُوطِ الإِيجَارِ: أَنْ يَسْتَأْجِرِ الإِنْسَانُ الدَّارَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فَمَا فَوْقُ ذَلِكَ، وَيُعْطَى الْأَجْرَةُ سَلْفًا، وَقَبْلِ انْقَضَاءِ الْمَدَةِ بِأَيَّامٍ يَؤْذِنُ الْمُسْتَأْجِرُ رَبِّهَا بِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْتَقِلْ مِنْهَا أَوْ يَجْدُدْ اسْتِجَارَهَا، فَإِذَا انْقَضَتِ الْمَدَةُ وَلَمْ يَنْتَقِلْ لِزَمْهِ إِعْطَاءِ الْأَجْرَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَسْوَغُ لِلْمَالِكِ أَنْ يَرْمِي بِأَمْتَعَتِهِ الْمُسْتَأْجِرُ أَوْ يَخْرُجَهُ كَرِهًا، إِنْمَا عَلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ لَهُ أَجْلًا وَلَوْ شَهْرًا، وَإِذَا عَرَضَتِ دَارُ الْمُسْتَأْجِرِ كَتَبَ صَاحِبَهَا وَرْقَةً تَؤْذِنُ بِذَلِكَ، وَالصَّفَحَاهَا بِبَابِهَا؛ إِذَا لَمْ يَسْعُهُمْ شِيخُ حَارَّةِ الْكَرَاءِ كَتَبَ صَاحِبَهَا وَرْقَةً تَؤْذِنُ بِذَلِكَ، وَالصَّفَحَاهَا بِبَابِهَا؛ إِذَا لَمْ يَسْعُهُمْ شِيخُ حَارَّةِ تَجْمِعِ عَنْهُ الْمَفَاتِيحِ كَمَا فِي مَصْرِ، وَمِنْ اسْتَأْجَرِ دَارًا فَلَا بَدْ وَأَنْ يَدْخُلُهَا مِبِيْضَةً مَصْبُوغَةً الْمَنْجُورَ، وَصَبَغَ الْخَشْبَ عَادَةً حَمِيدَةً فَإِنَّهُ أَبْهَى لِلنَّظَرِ وَأَبْقَى لِلْخَشْبِ، وَقَدْ تَظَهَرْ بِهِ الدَّارُ بِهِيَةِ فِي الْخَارِجِ، وَرَبِّمَا كَانَ دَخْلَهَا بِخَلْفِ ذَلِكَ، وَهِيَ عَكْسُ الْعَادَةِ عِنْدَنَا فَإِنَّ خَارِجَ دِيَارِ مَصْرِ وَالشَّامِ مَظْنَةً لِلْهَمْجِيَّةِ مَعَ أَنْ دَخْلَهَا مَنْقُوشَ مَزْخَرْفَ؛ وَسَبْبُ ذَلِكَ أَنَّ الْحَكَامِ فِي السَّابِقِ كَانُوا أَيْدِيهِمْ مَمْتَدَّةً لِأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الرَّعْيَةِ يَتَظَاهِرْ بِالْغَنِيَّ لَا فِي بَنَاءٍ وَلَا فِي لِبَاسٍ، أَمَّا صَبَغُ الزَّاجِ فِي مَالْطَةِ فَغَيْرُ مَسْتَعْمَلِ.

ثم ليس على عزب أراد أن يسكن بين المتزوجين من حرج، ولا حرج عليه أيضًا في الصعود إلى سطحه، ولا يطلب منه ضامن من حيث أدبه وحسن تصرفه، ولكن من حيث كونه قادرًا على الأداء.

وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر، فإذا نفذ التمس صاحب الدار من ناظر الأقنية فأمده بماء من عين جارية، وسواء في ذلك القريب والغريب، ومن لا بئر له استسقى من العين المشاغة، وكثيرًا ما تجعل المطابخ تحت الأرض ولها خروق في سطح الطريق ليدخل منها الضوء، فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق، وكذا هي مطابخ لندرة غالباً. ولا تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور، ومن هذه الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له في بلادنا، وفي الديار الكبيرة ولا سيما التي يتبوأها الإنكليز أجراس صغيرة مدللة بأسلاك حديد نافذة في الغرف، ويتصل بها شرائط من حرير، فإذا أراد المخدوم إحضار الخادم جذب الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار، وهذا أوفق من التصنيف باليدين، وربما كتبوا على صفحة الباب اقرع الباب أو أطن الجرس، وكذا العادة في بلاد الإنكليز، ولكن ليس في الأبواب هنا خروق لوضع المكاتب كما في ديار لندرة.

أما طريق المدينة فإن الماشي فيها أبدًا يصعد وبهبط كحيزوم السفينة في الأمواج، غير أن لها درجًا يهون من صعبها، ويمكن المشي على حفافاتها تحت المطر، ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لمر الناس ومرور الخيل والعجلات في الوسط، وقد كانت جميعها سابقًا مبلطة، فكانت قرقعة العجلات عليها لا تطاق، فاقتلت الإنكليز بلاطها من الوسط، وجعلوا بدله ترابًا وحصى. فقال أهل مالطة إن الإنكليز دأبهم أن يحرروا بلادهم كما حربوهم من قبل بأخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها أخرى من حديد، والحق يقال إن فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثاراً للنقع، وفي الشتاء مناقع للوحل، وإنما فعلت الإنكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الأعيان الذين لهم عواجل، فلنفع هؤلاء وحدهم أغمضوا عن نفع العامة، وهذا دأبهم من أنهم يراعون خاطر العلية دون الجمهور، والباقي من الحجر على الحافتين متى تصبه الشمس في الصيف يصر مسدراً. هذا، ولما كان أهل مالطة أحقرن الناس على ملابسهم وأخذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتاء قليلاً، فتبقي الطرق دائمًا نظيفة، فاما في لندرة فإن النساء يخرجن صيفاً وشتاءً ويلبسن نحو قباقيب تقينهن من الوحل، فلهذا تكون طرقها وسخة جدًا، وقد رأيت كثيراً من الإفرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة ويفضلونها على كثير من

طرق المدن العظيمة بأوروبا، غير أن زوايا كل منها مماثلة قدرًا ونجاجة، ومنها ما لا يمكن لاثنين أن يمشيا فيه معًا، وفي كل زاوية فانوس مركوز على دعائم من حديد يوقد الليل كله، ومثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة وباريis إلا في أضيق الطرق وأردها، وقد بلغني بعد تحرير هذا الكتاب أن أنوار فاللة تستعمل الآن من الغاز.

ثم لا يخفى أن الإفرنج دأبهم أن يشنعوا على العرب والترك أن بلادهم غير نظيفة الطرق ولا مرتبة الأسواق، وقد ملأوا الكتب بذلك، ولم أر منهم من مدح مدينة ما إلا أنهم قد أفرطوا في ذلك، فإن أكثر هؤلاء يذهب إلى بلادنا مستوفًّا، ويرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحيبة، والمنازه الفسيحة النضيرة، فيتأذى مما عانى، ويحمل ذلك على مناكب البلد جزافًا، ويغض النظر عن سيئات بلاده، فإن حوانيت أهل الحرف والصنائع في فاللة وغيرها أيضًا متفرقة في جميع أطراف المدينة، فربما كان دكان الحداد تحت دار قاضٍ أو مطران، ولا تزال أصوات المطارق باللغة مسامعة، وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدام قصري الحاكم والمطران، وكثيرًا ما يتفق أن صاحب العيلة يستأجر دارًا بجانب زانية تكون إذ ذاك غائبة، فلا يدرى بها حتى إذا تبوأ محله أقبلت تجر ذيول عهرها، فمتى قدمت البحرية سمعت لهم ولهم ضجيجًا منكراً، ولا تزال تسمع سفلة أهل البلد هنا يغنوون في الليالي ويزاطون ولا وازع لهم، فهل هذا يعد من الترتيب؟ أما أصوات الأجراس من الكنائس فبلية كبرى، وبالجملة فإنه قلما يتهاأ الإنسان هنا في سكنا دار.

ثم إنه ليس في فاللة حمام منظور يتظهرون به من نجاستهم فإذا اضطروا إلى كشط الوسخ عن أج丹هم استحموا في البحر. نعم إنه يوجد محل أطلق عليه لفظ الحمام، ولكنه ليس في صفة الحمامات التي في بلاد المسلمين؛ إذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكليس ولا تكليس ولا عرق، على أنه غالٍ جدًا، ونحوه حمامات بلاد الإفرنج غالباً من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء والمتتكلزون من المالطيين يقلدون موالיהם في اتخاذهم مقاطس من قصدير أو خشب في ديارهم، ويدعون أن ذلك أسلم للجسم وأنظف، ولعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا إلا رداءة الهواء، فإن من كان في محل دفء وخرج منه مقابلًا للريح لا يأمن أن يمني بداء. وكنت قد ذكرت يوماً لبعض الأطباء عادتنا على الحمام وتغচت لفقدده، فقال لي: لو كان عندنا حمامات لما كان من يستحم فيها، وقوله هذا يحمل معندين؛ فإما أن يكون قد أراد أن المالطيين لا يستعملون ذلك، أو أن الحمام يميت الناس حتى لا يعود أحد يدخله، وهذا دأب هؤلاء في الاعتزاز

عما لا يوجد في بلادهم، فإنهم يقولون إنه غير نافع، أو غير موافق كجواب آخر، وقد سألته عن وجود رفائين للجوخ والشال الكشمبي، فقال: نحن الإفرنج لا نعني بمثل هذه الصنائع، مع أنهم أعظم الناس اقتصاداً وتوفيراً وأكبرهم هنا يرقد سراويله من دبر، ويمشي كذلك من دون رداء يستر رقبته، وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها، فلا يمكن للإنسان الجلوس إلا في بيته أو في محل قهوة. نعم، إنه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم، ولكن لا يقعد عليها إلا الأوياش فإن القعود عند الإنكليز على هذه الصفة عيب، وتابعهم المالطيون على هذا، ويقال: إنه كان في المدينة سابقاً عدة مصاطب فأزالها الإنكليز إلحاقاً لها بلندرة.

فأما محال القهوة في فالتة فإنها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر أو على حديقة، وإذا أطلت الجلوس جاءك الساقي ومسح المائدة قدامك إشارة إلى أنه ينتظر غيرك، أو كأنه يقول بسان الحال لقد أبرمت بي فمتي تفارق، ولا يمكن لأحد أن يقعد ناحية البحر ساعة واحدة؛ لأنها جميعها قذرة، ولا يمكن له في المطال المرتفعة الكاشفة على البحر أن يأكل أو يشرب أو يدخن احتراماً لنساء الإنكليز، وفي شواطئ البحر حيث يعوم الناس مدة خمسة أشهر لن ترى كثاً أو عرشاً أو خيمة، وإنما ينصب السباح حر وجهه للشمس، فيحترق قبل طلوعه من الماء. وفي الحقيقة فإن الإنكليز جعلوا مالطة خالية عن المنازه والمثبات السارة أصلاً.

ومن أعظم أسباب الحظ عند المالطيون الذهاب في القوارب ليالي الصيف؛ ليغتسلا في البحر، فتدهب الرجال والنساء معاً، ويقضون هزيعاً من الليل بالسباحة والغناء، والقوارب في مرسى فالتة كثيرة جداً، وكلها مصبوغ ظريف، ولكن ليس فيها مقاعد كفنج مصر ولا زرابي أو زخرفة كقوارب الأستانة، إلا أن هذه خطر على راكبها فإنها لختتها تميد من أدنى شيء، ولقلائل أن يقول إن المطليين هم مثل الإنكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة فإن متكاثفهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسرور خيلهم ليست مجعلة إلا لقضاء الحاجة فقط، وأغرب من ذلك حوانيتهم، فإن التاجر لا يزال واقفاً من الصباح إلى المساء، وقل من كان عنده كرسي له أو للمشتري، وفي هذا الأخير خالفوا الإنكليز. ويقولون للقارب «دعصمة» وكأنه تصغير دعصة الرمل، شبهوه بها؛ لاستدارته وصغره، وهذا دأب العرب في أنهم يسمون الأشياء الغريبة عنهم بما ألفوه في بلادهم. فإن قلت إذا كان هذا دأب العرب فمن أين للمطليين ذلك؟ قلت: لا ينكر أحد أن اللغة المطالية هي عربية، وأن المسلمين حين

استولوا على الجزيرة، كما مر، هم الذين سموا هذه الأشياء، وإنما لم يقولوا قارباً مع كونها عربية فصيحة؛ لأن في اللغة المالطية أشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الأصلي، واستعير لها أسماء مشابهة لها أو مجاورة فيقولون مثلًا للقليل فتيت، ولل كثير وسق، وللحسان زامل بالإمالة وهو ما كأنه يطلع من الدواب لنشاطه، وللقرية رحل، وهو في اللغة مسكن الرجل وما يستصحبه من الآثار وغير ذلك.

ومن ذلك – أي الحظ عندهم – التماشي أمام قصر الحاكم حين يعزف بالآلات العسكرية، فيذهب إلى هناك جميع المتشبعين المتكيسين، فترنو الرجال إلى النساء، وتدل النساء على الرجال، ومع ذلك الأعياد الكنائسية، وهي كثيرة جدًا، فإن لكل قديس عيًّا مختصاً به في زمن مخصوص ومكان معلوم، فيرحل إليه عند اقتراحه المتلهون، ويقضون ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما أشبه ذلك، ولا بد للأ gio باش في هذه الأعياد أن يسکروا ويفحشو ما أمكن، ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون في الخيل والحمير والقوارب، والسابق يفوز بالخطر.

ومن ذلك زحلقة لهم يحضرها ألف من الناس، وهي أنهم يربطون خشبة طويلة كصاري المركب إلى سفينة، ويدهونها بما تزل عنه القدم، وينصبون أمامها غرضاً، ثم يمشون إليه على تلك الخشبة فمن زل عنها وقع في البحر.

ومن ذلك ثلاثة أيام في المرفع، ويُعرف بالكرنيفال، وهي الأحد والإثنين والثلاثاء، يلبس فيها الرجل كالمرأة والمرأة كالرجل، وييتزبون بهيئات متنوعة وأشكال مختلفة، ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه، ويتطوفون في المدينة حيارى سكارى، ويسمون هذا التشكل مسكرة، وكأنه محرف عن المسخرة، ولا يتحاشون في هذه المدة شيئاً من الخلعة والقصف والمنكرات، ويومئذ تغص الطرق بالناس والمراكب، فإذا أصبح يوم الأربعاء ذهبوا إلى الكنائس، ونترعوا الرماد على رءوسهم إشعاراً بالإدانة، ومن ثم يقال لهذا اليوم أربعاء الرماد، وهذا الاسم باقٍ عند الإنكليز مع إلغاء هذه العادة عندهم، ومعنى الكرنيفال رفع اللحم: أي إزالته. ومما جرت به العادة في هذه الأيام أن الحاكم يولم وليمة فاخرة، ويدعو إليها وجوه أهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدومهم بملابس مسخرية فيلبونه، ويستأجرون هذه الثياب من الحوانين، فيقف لهم في غرفة في قصره، وكلما قدمت عليه عيلة احنت له فاحتفل بها فإذا انقضى السلام شرعوا في الرقص، وكلما رقصت النساء قليلاً أخذهن الرجال إلى المائدة؛ ليأكلن أو يشربن ما شئن، ثم يعدن إلى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الأصحاب، وربما اتخذ بعض جشعى المالطيين من

تلك المائدة خبنة، وهي ما يحمل من الطعام في الكم، وكنت أذهب إلى تلك الدعوة بزيي المألف فيخالونني من الساخرين، وكانوا يسألونني هل في بلادكم مثل ذلك؟ فأجيب مغالطاً إن لم يكن عندنا هذا فخير منه، ولعمري قبيح بالرجل الفاضل أن يرى راقصاً كالولد.

ومن أعظم مواضع الحظ واللذات: الملهمي، وهو المسمى عندهم بلفظة الثياطر أو الثياطرو، وليس في فالتة كلها سوى ملهمي واحد، وجل اللاعبين فيه من إيطاليا، ولكن ليسوا من الطراز الأول، وسيأتي الكلام بالتفصيل على ذلك إن شاء الله تعالى، فإني التزمت بإيجاز الكلام على هذه الأمور في مالطة؛ ليكون مناسباً لأحوالها إذ جميع ما فيها إن هو إلا مختص من بلدان أوروبا، والظاهر أن المسلمين كانوا يطلقون على هذا الموضوع اسم الملهمي فقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ما نصه:

إني فتحت مدينة المغرب، ولا أقدر أن أصف ما فيها غير أن فيها أربعة آلاف حمام، واثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، وأربعة آلاف يهودي يؤدون الجزية، وأربعين ألفاً ملهمي. ا.هـ.

غير أن هذا القدر كثير على أية مدينة كانت، فإن باريس وما أدرك ما بباريس لا تحوي إلا ثلاثة ملهمي، ويحمل أن المراد بالملهمي هنا كل موضع يكون للهو، فيدخل فيه موضع الحكايات والمشي والاجتماع، ونحو ذلك.

وأما قول بقال ففي القاموس في بـ قـ لـ، وبالبقال لبيع الأطعمة عاميّة، وال الصحيح البـ دـالـ، ونحوه قوله في بـ دـ لـ، غير أنه فسر القربيق في بـ بـ القاف بأنه دكان البقال فليحرر. ومن الغريب أن أحد المشعوذين الطليانيين أبدى في ملهمي فالتة من التمثيل والتخييل أموراً غريبة، ثم أراهم أيضاً منشوراً من البابا بالرخصة له في هذه الحرفة، فصدقه كل من رأه، فهلا كان هذا المنشور أيضاً من جملة شعوذاته.

ومن المباني العظيمة في هذه المدينة: الكنائس، وهي حسنة البناء متقدة مزخرفة بالنقوش، والدمي، والتماثيل، والصور، مزينة بالأرجوان والإستبرق وأدوات الفضة والذهب، وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق، وأعظمها كنيسة صان جوان وهي مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور أعيان مالطة الأقدمين المدفونين فيها، وفي صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان جوان رافعاً يده فوق رأسه «أي رأس المسيح» يعمده، وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب أكبر من الرجل الجسيم، وبخارج الكنيسة

صفحة ساعة يعلم منها الساعات والأيام والشهور والسنون، وإذا ضرب جرسها سمع صوته كل من في المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها، وفي هذه الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يعني جميع صعاليك مالطة، ولكل يوم من الأسبوع بدلة للقسيس خصوصية، وقس على ذلك أيام الأحاد والأعياد والأحوال الطارئة كالزواج والعموية والموت، وفي الحقيقة فإن كثرة الكنائس الحسنة في جزيرة مالطة على نفسها لما يعجب منه، وفي كل قرية ترى ثلاث كنائس فأكثر، وأول افتخار المالطيين إنما هو بكثرة كنائسهم؛ إذ ليس عندهم شيء آخر يتبااهي به، والتفاخر صفة قائمة في النفوس، وإذا سرت إلى قرية ما متزهاً فلا تكاد تصل إلا وتحدق بك جماعة ليروك كنائسهم، وجملة ما يُصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلاثة ألف ليرة في العام، ولا يعرفون ضرب الأجراس بالحباب كما يفعل الإنكليز، وإنما يصعدون إلى قبة الجرس، ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع.

ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات، وفيها كنت أعلم اللغة العربية إلا أن المطليين يتعلمون كل شيء ما عدا لغتهم، وفي مدة الصيف يعطى المعلمون نحو ثلاثة أشهر، وأجرهم غير معنون، وعند انتصاراتها يُعين يوم لاجتماع التلامذة ومشايخهم في حجرة في المدرسة، وفي الصدر مائدة عليها كتب، ثم يقوم أحد المشائخ وهو في الغالب صاحب المعاني والبيان فيلقي على الحاضرين خطبة، ثم تقرأ أسماء من نبغوا في العلم من الطلبة، ويعطون من تلك الكتب ما يليق بهم، وربما حضر الحكم بنفسه لهذا، ولا بد من أن يعطي لكل معلم دفتر يكتب فيه أسماء الطلبة، وما يحصلونه من الفنون، ويشترط عليه أن لا يعلم تعليماً مغايراً للديانة الكاثوليكية الرومانية.

ومن الغريب أن أهل مالطة مع كون لغتهم فرعاً عن العربية ليس منهم من يحسن قراءتها والتتكلم بها، وإذا شاء أحد أن يفتح مكتباً بمالطة تمحنه علماء هذه المدرسة أولاً، فإذا رأوه أهلاً لذلك أعطي رخصته من الديوان فيه، وجملة ما يُصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب أخرى في القرى في كل سنة نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة، ومن ذلك دار كتب موقوفة باللغات الإفرنجية، فمن شاء أن يطالع كتاباً منها ذهب إليها واستوعبه، وإن كان من الوجوه يحضره إلى منزله، وعدة ما فيها ثلاثة وثلاثون ألف سفر، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل.

وفي المدينة أيضاً عدة حوانين مشحونة بأصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان، ويمكن أن يقال: إن الكتب بأوروبا أرخص ما يكون، لا جرم أن المولع عندهم بالعلوم

مع سعة ذات اليد لأسعد الناس؛ لأنه إذا شاء أن يتعلم أي فن كان وجد له فيه شيئاً، ولأن الكتب والأدوات الازمة لذلك الفن حاضرة عتيدة يجدها بأهون سعي، ولا يخشى في الكتاب خرماً كما ذكرنا ولا تحريفاً، فكل كتبهم مصححة، ولأن المدارس الواقفية تعلم فيها العلوم مجاناً، أو يعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد، فطالب العلم في مالطة يعطى في الشهر شلينين ونصفاً، وطالب اللغة شليناً واحداً، ولعمري أن طالب العلم في لغتنا لو لم يصده عن المطالعة إلا تعذر وجود نسخة صحيحة لكتفاه ذلك عذرًا، فضلاً عن نصبه وحرمانه وخموله.

وفي فالتة سبع مطابع؛ إحداها للميري تطبع فيها الأوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحكم والباقي للأهلين، وفيها أيضاً دار لصحف الأخبار الواردة من أوروبا، وداران للصرف توضع فيها الأموال، ومنارة فيها فانوس كبير لهداية السفن، وعدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها القراءة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة، وغير ذلك. غير أن الأولاد تتغلب عليهم لغتهم وتمتعهم عن التكلم بغيرها؛ إذ كانت هي اللغة الغالبة، وإلى الآن لم يعلم من نساء مالطة من نبغت في المعارف والتأليف، فغاية ما يتعلمن إنما هو أن يقرأن بعض كتب كنائسية، وقد كان في السابق دار معدة لتلقي الن Gould وتربيتهم، وقد بطلت الدار، وبقيت عادة الن Gould وعادة التبني من اليتامي، وفيها ثلاثة مستشفيات؛ أحدها: للعسكر، والثاني: للرجال، والثالث: للنساء، ومن لم يكن لها مأوى تأوي إلى هذا المستشفى، وتمكث فيه ما شاءت.

وبخارجها أيضاً أربعة أخرى؛ أحدها: للمجانين، وأكثر جنون أهل مالطة يكون عن وساوس في الدين، وقد رأيت فيه عجوزاً تهذى وتقول اليوم عيد كما أمر بذلك القسيس، والثاني: للمرضى من العساكر البحرية، والثالث: للفقراء، والرابع: للطاعنين في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم الماديين لوداع الدنيا يدأ، والمغمضين عن درزها ونعمتها عيناً، قد أصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب، ويتعظ بهم المستهتر في حب هذه الدنيا الغرور؛ إذ تراهم كالأغرار من الأولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعي الأجل، وأظلمت منهم الأ Bashar بعد أن أضاء فيهم صبح المشيب، وانحلت منهم القوى بعد أن غلت منهم الأفكار والنهى، فثم يقضون ما بقي من ظمه حياتهم بكل وصار.

وفي فالتة عدة فنادق للمسافرين بهية ذات حجرات مفروشة عتيدة، أجراة كل منها في اليوم نصف شلين في الأقل، وفيها من الذكور أكثر من اثنين عشر ألفاً وخمسمائة

نفس، ومن الإناث أكثر من أحد عشر ألفاً وثمانمائة وسبعين، جملة ذلك أربعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وسبعون نفساً، ومن القنائل أربعة عشر، ومن القسيسين نحو مائتين وخمسين، وبسبعين أديار للرهبان والراهبات، وجملة ما في الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع وسبعين ومن الصغار مائتان وأربع وأربعون، ومن الأديار واحد وعشرون، ومن الأطباء مائة وتسعة وعشرون، ومن الدوائية والعقارية تسعه وأربعون، ومن كتاب الصكوك والعقود مائة وأربعون، ومن أصحاب الموسيقى مائة وثلاثة وستون، ومن المعلمين في المكاتب مائة واثنان وأربعون، ومن المصورين مائة وثلاثة وتسعون، ومن المتوظفين في خدمة الميري خمسمائة وواحد وثلاثون، ومن المرتب لهم عمريات ولا شغل لهم ثلاثة وستون، ومن التجار ستمائة وستة وثلاثون.

ومن السمسرة مائة واثنان وسبعين، ومن أصحاب الحوانيت ألفان وستمائة وأربعون، ومن المزارعين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وعشرون، ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون، ومن صاغة الفضة والذهب مائتان واثنان وثلاثون، ومن النجارين ألف ومائتان وثلاثة وثمانون، ومن الأساكفة ألفان وأربعمائة، ومن الغزاليين والغزالات ثمانمائة وأربعون، ومن النساجين والنساجات ثلاثة عشر ألفاً وستون، ومن الخياطين تسعمائة واثنان وثمانون، ومن لفافي ورق التبغ تسعمائة وثلاثون، ومن الخدام ثلاثة آلاف ومائة وعشرون، ومن أصحاب القوارب ستمائة واثنان وأربعون، ومن الساعاتية ستة وعشرون، ومن المتعلمين في المدرسة الجامعية وفي غيرها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثون، ومن الديار الكبار إحدى وعشرون ألفاً ومائتان واثنتان وستون، ومن البيوت الصغار ألفان ومائتان وواحد وسبعين، ومن الحجرات على حدتها ثمانية آلاف وثلاث وأربعون، ومن الدكاكين ثلاثة آلاف وخمسمائة وعشرون، ومن المخازن خمسمائة وستون، ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون، ومن الذين لا عمل لهم من الأعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون، ومن العامة نحو أربعين ألفاً، وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة وثلاثة وسبعين، وجملة ما يولد فيها في السنة أربعة آلاف وأربعمائة، وجملة أهل الجزيرة نحو مائة ألف نفس منهم أحد عشر ألفاً وخمسون من الإنكليز وسبعمائة وسبعين من الغرباء.

كثيرون إن عدوا قليلون إن رجوا فهم دون العشر أن تنبو خيرا

وجملة ما يرد إليها في السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان وستة عشر، وما يصدر عنها تسعه ألف وخمسمائة وثلاثون، وفي فالتة سوق تبع فيها سائر أصناف المأكول، فتجد فيها جميع أنواع السمك واللحم كالبقر والضأن والعجل والدجاج والطير، أما السمك فإنه لذيد جداً، وأما اللحم فأطبيب أنواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلاثة أشهر فيكون أذن من لحم الطير، وهذه الظرفة النفيسة لا وجود لها في لندن ولا في باريس، أما الطير فإنه قليل جداً، ولا عيب على من يشتري نصف دجاجة بل ربها أو جناحيها أو رأسها بل مصارينها، كل ذلك من اقتصادهم، فإنهم أعظم الخلق خبرة به، ولا عيب أيضاً على من يذهب بنفسه ويشتري مؤنة يومه وإن يكن قاضياً، بل النساء السيدات يفعلن ذلك أيضاً، ومتى اشتريت شيئاً تحمله أحد الأولاد الذين مهنتهم الحمل وهم كثيرون، وكذلك لا عيب على من يشتري من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط، وليس في المدينة حمير فارهة للركوب كحمير مصر، وإنما يذهب الناس في عاجل، وهي ليست كعواجل الإفرنج، وليس لسائقها مقعد فيها، وإنما يمشي بجانبها على رجليه الحافيتين، ومتى رأى أصحابها أحدهما مقبلًا ازدحموا عليه ولا ازدحام حمار مصر.

وليس في مالطة كلها مصانع للساعات أو الزجاج أو الأدوات الحربية والأقمصة وغيرها، فأشهر الصنائع عندهم النجارة والخياطة والسكافة والحدادة والنمساجة والصياغة، وأخص أعمال النجارين الكراسي والمتكات والموائد والخزائن والصناديق والأصونة ونحو ذلك، وقد يحسنون أيضاً إنشاء المراكب، وعمل الحدادة مقصور على سرر النوم وما يلزم للبناء، وعمل الصياغة من الذهب إنما هو الشنوف والخواتم والسلسل والأسرة وأشكال طيور وزهور والأباريزم والإبر ونحوها، ومن الفضة الملاعق والمغارف وأباريق القهوة والشاي والأقداح والأطباق والمسارج وأوعية السكر ونحوه، فاما النساجة فلا تتعذر شقق الفوط وأغطية الفرش وقلوع المراكب، ومن هذا الأخير يبعث إلى بلاد المسلمين مقدار جزيل، وليس من أهل هذه الصنائع من يصل إلى درجة الإنكليز والفرنسيين في الجودة والإتقان، إلا أن عمل المالطية وثيق متين؛ فإذا اشتريت مثلًا حذاء أو ثوباً مخيطاً بقي مدة لا يحتاج إلى تصليح، أما عمل الإنكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال، وعمل الفرنسيين ما بينهما.

ومن الرسوم الحسنة في مالطة أنه إذا أراد أحد شراء شيء من الفضة والذهب ذهب إلى قيم الصنعة وسأله عن قيمته فيزنه ويكتب له تذكرة بذلك، فاما الجعل فموكول إلى التراضي، والغالب في مشترى الجوادر أن يكون أنقص من التثنين.

ومما يكره بمالطة كثرة الشحاذين وإلحادهم بالسؤال حتى إنهم يقرعون الأبواب وقت الغاء، ويجررون مع الماشي، ولا يبرحون مستجدين حتى يفوزوا بشيء، وهم يرون أن حقاً على الموسرين أن يواسوهم بأموالهم، وإذا أعطيت أحدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك في الدستور، فأينما يرك يلزمك، وأول كلامهم في الاجتداء قولهم: «عن روح مسيرك» أي أبيك، أو «عن أرواح البوركاتوريو» أي المطهر، وكان بعضهم يقول لي عن روح الحمد تيعك، والاجتداء في باريس ولندرة من نوع.

ومما يكره أيضاً ما عدا طنطنة أجراس الكنائس المتتابعة أصوات البايعة الذين يطوفون في الأسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء، فإن فغر أفواههم ومطر أصواتهم وفظاعة لحنهم على اختلاف معنيه لما يستعاد منه. كيف لا وهم يقولون للتفاح تفريح، وللرمان رمين، وللبطيخ بتريح «بالحاء المهملة»، وللخيار حيار «بالحاء المهملة أيضاً»، وللأجاص لن GAS، وللداع دليع، وللخبز حبس، وللماء للمبا، وللخوخ حوح «بالحائين المهملتين»، وما أشبه ذلك. فلا يمكن للعربي استماع ذلك، ولا سيماء إذا كان في اليوم مراراً من أشخاص ذوى شراسة وفظاظة. وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا إيراد ما قاله بعض الأدباء: وفي الناس من يبدل الخاء المعجمة حاء مهملة، فيقول في خوخ حوح وفي خلخال حلحال، وهي مستحسنة من الغلمنان والجواري، وكذلك إبدال السين ثاء وعليه قول الشاعر:

وأهيف كالهلال شكوت وجدي إليه بحسنه وأطلت بثى
وقلت له فدتك النفس مني تحز في الثواب فقال بث

قلت: هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فتقال: وبس، بمعنى: حسب أو هو مسترذل، وأهل مالطة يبدلون سينها زاياً ويكسرون أولها، وأهل تونس وطرابلس لا يعرفونها، ويستعملون بدلها لفظة بركة وهي قبيحة جداً، وقلت أنا في مليحة مالطية:

بدت في الثياب السود والوجه زاهر وماست بقد يخجل الغصن الغضا
لها منطق عذب على قبح لحنه وفي حسن من تهواه عن لحنه أغضا

إلا أن هؤلاء البايعة ليسوا من هذا الطراز لا جرم أن النطق يؤثر في ذي الذوق السليم أكثر من الحسن، وأنه من خصوصيات الإنسان، والحسن يوجد في جميع المخلوقات،

ولقائل أن يقول: إن النظر إلى ذي جمال رائع بغتة يدهش له ويتأثر به أكثر من استماع متلجم بلين من أول وهلة، قلنا هذا على اعتقاد الناطقية فيه، فلو فرضنا أن الناظر يرى جميلاً معتقداً أنه أخرس وقبيناً منطبيقاً لتأثير بالثاني دون الأول.

وأشد ما يكره في هذه الجزيرة هو أن الأوباش والأوغاد يتربدون حيث تتردد الخاصة ذوو الفضل، فقلما رأيت مكاناً خالياً منهم، وإذا لقوا أحداً من الوجوه، سلقوه بأسئتهم وملزوه، فعلى الكريم أن يجتنب محضرهم ويبعد عن مثابتهم، وأسوأ من ذلك أن القضاة يعتبرون هؤلاء الأنجالas عند التحاق والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس، وهذا الذي جرأهم على التمادي في القبائح، وهؤلاء الأراذل إذا شربوا قدحاً واحداً من الخمر طافوا الأسواق وهم زائطون ضاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الإنفاق، وفي ليالي الآحاد والأعياد تغص بهم المسالك، فلا يطيق أحد سماع غنائهم ولغطهم.

هذا وكثيراً ما ترى الملحنين والبحريين سكارى في الأسواق حيارى، وإذا صرعتهم الخمر في الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون، وربما سرق منهم وهو على هذه الحالة ما بقي لهم من الحانة أو جردوا عن ثيابهم وهو لا يشعرون، وربما تقاي أحدهم ثم عاد إلى الشرب، إلا أن منزلة السكارى من عسكر المدينة أجل من العسكر البحري، فإن أولئك يجررون إلى مقامهم تجريراً وهؤلاء يغادرون صرعى عرضة للناهبين.

ومما يُحمد في مالطة عدم العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة، وإن وجدت فلا سُم لها، وأهل مالطة يزعمون أن ذلك من كرامة ماربولس حين ألقى الشعبان من يده في النار، وأخبرني ثقة بأن الحياة في جزيرة كريد أيضاً لا سُم لها، وأهل إيطاليا يقولون إن ماربولس أزال السم من أفواه الحياة فانتقل إلى أفواه أهل مالطة، وزعم بعض من الإنكليز أن ماربولس لم يمر بمالطة، وإنما كان مروره بملطية.

إلا أنه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوشخ كل شيء أبيض، والعناكب تلقى لعابها بين كل شيئين، أما العثة فإنها لا تلحس الصوف لحساً كما يقول صاحب القاموس وإنما تسترطه استرطاً، وفي معنى العناكب قلت:

غدا بيتي كثير الفرش لما تلهمل فيه نسج العنكبوت	فلا عجب إذا ما قلت يوماً لكيد الناس إني ذو بيوت
---	--

فصل في عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم

عادة أهل مالطة المتشبعين في اللباس كعادة الإفرنج إلا أن نسائهم يلبسن وشاحاً من الحرير الأسود وعلى رءوسهن غطاء منه أيضاً من دون برنيطة، وأقبح شيء في الضيف رؤية هذه الثياب السود، وقد يحاكي بعضهن نساء الإنكليز في الزي، ولكن متى ذهبن إلى الكنيسة ليسن زيهن الأصلي توهم أن اللون الأسود أليق بالكنيسة وأولي بالقنوت، وهو كوهن الجهلة من نصارى الشام أن من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به أن يتقدم إلى محراب الكنيسة.

أما أهل القرى فإن الرجال منهم يثقبون آذانهم، ويترقوطون بأقراط من الذهب، ويرخون سوالف مجعدة من أفواههم إلى طلاهم، وهاتان صفتان من صفات الإناث، ويلبسون طرابيش مختلفة الألوان مسدلة على أكتافهم، وهي شبيهة بالأجرية، ويمشون حفاة، ويتحزمون بأحزمة، ومنهم من يتختم بعده خواتم من ذهب، ويجعل أزار صدريته منه أو من الفضة، ويحمل سترته على كتفه، ويمشي حافياً مشية المفراح البطر، وإن الجرار منهم أو الخمار ونحوهما ليخرج في الأعياد وفي أصابعه عشرة خواتم من الذهب، ومثلها في سلسلة ساعته، وفي صدريته أزرار كثيرة من الذهب أو الفضة، أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطةه، وجميع الأعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون أردية تستر أدبارهم، خلافاً لعادة الإفرنج في أوروبا، والمتكيس الغيساني منهم هو الذي يزنق سراويله على فخذيه وإليتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الأرض، فإذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنقد من دبر، وأكثرهم يفخّم فخذيه ومؤخره بحشو في السراويل،

ويستر كل عظم ناتئ في بدنها، ويبدي ما ينبغي أن يستر، فإذا مشى أحدهم على هذه الصفة نظر إلى عطفيه كالزوزك وإلى سراويله وحذائه معجبًا بما لديه، وللنساء زهو وعجب إذا مشين أكثر من زهو الرجال، فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة إلى بعلها، وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء رأسها باليمنى، فتكون على هذه الحالة أشغل من ذات النحين، فمتي ألوين إلى بيوتهن لبسن أخلق ما عندهن من الثياب، وسواء في ذلك الفقراء والأغنياء والرجال والنساء، وهذا هو أحد الأسباب التي حببت إلى المالطيين تجنب المعاشرة والمخالطة، وربما عدت المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات، وإذا زرت أحدهم فلا يستحي أن يقول مهلاً فإن زوجتي تبدل ثيابها لتحضر بين يديك، ومنهن من تبقى في بيتها بغير حداء، ثم إذا خرجت في يوم الأحد لبست جوارب من حرير وكفوفاً منه وتبهرجت غاية ما يمكن، فإن المالطيين يتخلون في الأعياد كل التفહل بخلاف الإنكليز هنا فإنهم يبقون على حالة واحدة. وفي الجملة فإنهم هؤلاء الناس كله مصروف في التفاخر بالرياش وهو شأن حديث النعمة. ومتي كانت إحدى نساء مالطة حاملاً مشت الخلياء، ورفعت بطنها ليراها كل من مر بها، ومتي أبصرت ذا شوهه رسمت شكل الصليب على بطنها تعوداً من سريان الشوهه إلى الجنين، وإذا شمت في الطريق رائحة طبيخ وتوحمت عليه بعثت تستهدي منه. أما حلي النساء فالذهب غالباً للأغنياء والفضة للفقراء، إلا أنه قل أن ترى امرأة من دون حلي من ذهب، وأصناف الحلي الشنوف، ويقولون لها مسالت، وفي لغة أهل الغرب مصالت، والأسوره يلبسنهها فوق الأكمام والإبر والخواتم والسلالس وال ساعات، ويندر جدًا تحليهن بالجواهر النفيسة، وإنما تتحلى بها الخواتين في الرقص والولائم وقد يجري عنها الجزء، وفي الجملة فليس لنساء مالطة ولا لنساء الإفرنج جميعاً كثير من الحلي كما لنساء مصر والشام، وإنما إعجابهن مقصور على نظافة الثياب، واتخاذها بحسب الذي، وكما أن لباس رجال الإفرنج لا يخلو من إخلال بالحياء كذلك كان لباس نسائهم أدعى إلى الحشمة والتصاون من لباس نسائنا.

فأما تغيير الذي عندهم فإنه نافع لأصحاب التجارة ومضر بعامة الناس، فإنه يقضي بمصاريف حديثة غير ضرورية، ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس، فتطبع صورته على أوراق، وترسل إلى جميع البلاد، وهذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها، فإن الإفرنج لما رغبوا عن المزرتش والمرقش من الثياب وعدوها من دأب الصبيان أولعوا بتغيير الشكل هذا، ولما كان لباس الإفرنج في الشتاء لا يتعدى

اللون الأسود من الجوخ وغيره، وفي الصيف لا يتعدى الثياب البيضاء لم يكن لأسوقاتهم ومواسيمهم بهجة، وليس ما تسر رؤيته إلا ملابس العسكر وبعض النساء، ولا شك أن حب الألوان الزهبية طبيعي؛ لأننا نراه في الأولاد وهم يقولون إن الميل إليه من طبع الهمج، وإنما ميلهم إلى الألوان مقصورة على فرش ديارهم وأثاثها، والحق يقال أن ملابس الإفرنج أوفق للعمل وأدعى إلى قلة المتصروف، فإنها ما عدا كونها مزنة وهو أصل في الاقتصاد، فهي عارية عن كلفة الرقم والوشي، وربما كانت أدعى إلى النظافة أيضًا، ومن عادة الإنكليز هنا الإنكثار من الثياب البيضاء، والإقلال من الجوخ ونحوه، فإن الغني منهم لا يكون له أكثر من ثلاثة جبات أو أربع، ولكن قد يكون له ستون قميصاً وعشرون سروالاً من الكتان وعشرون ملاءة للفرش، وقس على ذلك، وقد رأيت كثيراً من الأعيان هنا لهم جubb قد تلبد على أزيقاها الوسخ والعرق لا سيما أن منهم من يرخي شعر رأسه حتى يصل إلى قذاله، فتراه إذا نزع برنيطته تتطاير هبريته على كتفيه، ومع ذلك فهم يحلقون شواربهم بدعوى النظافة، ومن الإنكليز من يلبس كل يوم قميصاً، ويحلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار مرتين، وذلك مطرد سواء كانوا في البر أو البحر، ومنهم من يجعل صدر القميص أو طوقة وأطراف كميه منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم.

ومما يحمد عند الإفرنج استعمال النشا في الثياب البيضاء حين تغسل فإنها تأتي بها جديدة، والغسالات في مالطة لا يغسلن إلا بالماء البارد، فإن وضع اليد في الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضررًا، وصابونهم أحسن من صابون فرنسا، ودونهما صابون الإنكليز، وعندى أن أحسن صابون في بلاد أوروبا هو صابون قسطنطيلية في إسبانيا، والظاهر أنه من صنعة العرب؛ فإن أهل تونس لا يزالون يصنعون شيئاً منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما، وأجرة غسل القميص بمالطة صلدي واحد وفي باريس ثلاثة وفي لندرة أربعة أو خمسة.

أما عادة المالطيين في الأكل: فللموسرين الشوربة في الغداء واللحم والخضر والخم، وفي العشاء السمك والسلطة، وأفخر شيء عندهم لحم الخنزير؛ إلا إنهم لا يكترون منه ومن غيره كما يكترون من أكل الخبز بخلاف عادة الإنكليز، أما الفقراء فإن أحدهم ليأكل رطلًا من الخبز من أرطالهم بخمس جبات من الزيتون أو بقطعة من الجبن أو بصخة، والرطل المالططي هو نحو رطلين من أرطال مصر وشمنه نحو فرش، ولهذا كان المالطيون جميعاً كثيري اللهج بذكر الخبز، فإذا زارك أحد مثلاً وسألته عن أهله قال

لك كلام طيبون يأكلون الخبز، أو كأن يقول الطيب هو من يأكل الخبز، وإذا أردت أن تشتري شيئاً من أحد التجار ولم توفه ثمته قال لك أنا قائم بمؤنة عيلة تأكل الخبز، وإذا رأيت أحدها يأكل بعيداً عنك رفع إليك ما في يده وقال «أك يعجبك؟ أي إن يك يعجبك، وإن كان يعلم أن اقترابك منه محال، ثم لا يخفي أن خبز الإفرنج يكون كبيراً جاهضاً يقطعونه بالسكين، والحكمة في ذلك الاقتصاد فإن الأكل إذا قطع منه شيئاً وأبقى منه ما أبقى فلا يكون الحرص على الباقي عبياً، وربما جيء بالفضلة منه إلى المائدة مرات، بخلاف عادة الشرقيين فإن الرغيف إذا قطع منه شيء فلا يؤتى به إلى السفرة وهو ناقص فذلك يعد لوماً وبخلاً، غير أن جعل الرغيف كبيراً يوجب عدم نضج له، فخبز أهل مالطة يكاد له وهو الجزء الأكبر منه ينحصر فلا يمكن أكله إلا بعد يوم، وهو أرداً خبز في بلاد الإفرنج، فإنه ما عدا كونه معجوناً بالأرجل حامض وغير مرئ، غير أنه فيما أظن ليس مخلوطاً بأجزاء كثيرة كخبز الإنكليز.

وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمونه الغطاير، ويأكلونه على نوع التفكة، وقد سألت عن سبب قلته وعدم بيشه في جميع الحوانities فقالوا: إنه موجب لزيادة المتصروف لطبيته، وهو إذا جاعوا أكلوا منه ما يكسر الجوع فقط، وعامة المالطيين يطبخون الدم، ويستيقون إلى أكله، وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذاج دمها وهو لنا من الشاكرين، وهو وجيمع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات آخر مما نتقزز نحن منه. وقد بلغني أن من الماطلين من إذا فجع بشيء فجأة أكل فاراً أو ضفدعًا لإزالة الدهشة، وكيف كان فإن أخس الفلاحين بمالطة يعرف من أنواع الطبيخ ما لا يعرفه أكبر تاجر في بلاد الإنكليز، فإنهم يطبخون اللحم مع جميع البقول، والغالب أن الإفرنج لا نظافة لهم في الطبيخ من حيث كانت خداماتهم أبداً مكسوفات الرءوس؛ فيتناثر شعرهن في الطبيخ، ولأنهم قليلاً ما يبيضون آنية الطبيخ حتى إن هذه الصنعة في مالطة تقاد أن تعدد من المفقود، وأكثر آنية الطبيخ عند الإنكليز من الحديد، وهو أسلم عاقبة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج في كونهم يأكلون المخنوق، وزادوا عليهم في أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها، وإذا دعوت أحداً منهم إلى مأدبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل، وعلى ذلك قوله:

لثام إذا ما زرتهم في بيوتهم
كرام إذا زاروك ما أمكن اللحس
لكان لكل بين أنيابه فأس
ولو وسعت أفواههم غير ما بها

وقلت أيضًا:

لجاري ثغر للهم القرى ودم الورى منتهى حده
فلا شيء أصعب من فتحه ولا شيء أسهل من سده

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نبيأ، فلا تزال رائحة أفواههم منتشرة.
أما مراقدتهم فإنهم يرقدون غالباً على سرر من حديد، والمتتكلزون منهم يتخذون
في الصيف سرراً منه، وفي الشتاء من الخشب، وفرشهم متعددة وثيرة، وقد سمعت أن
غير الأغنياء يتذذبون فرشاً عالية ولكن لا يرقدون عليها، وإنما ينحددونها للمفاخرة
والمباهلة، والأطباء هنا يقولون إن الرقود على فرش القطن ضعف للجسم، وأن حبل
الليف أو التبن إذا نفث كان خيراً منه، وفرش الأغنياء من الصوف.

وعامة الملاطين يجعلون أقدارهم في وعاء تحت السرير فلا طاقة لأحد على أن يدخل
مراقدهم في الصباح، ولا بد من أن يرقد الرجل مع زوجته، وإن تقادم عليهما الزواج
وهربما فيه وأروحا، فأمام الأبواب والسفلة فتراتهم راقدين في الهاجرة على حافات الطرق
كباراً على جوهرهم، وقد جاء في الحديث نوم الشياطين على جوهرهم، وإذا زرت موسراً
منهم بادر إلى أن يريك ما عنده من الفرش والأثاث، وقبل كل شيء يريك فراشه، ولم
تجـ العادة عندـمـ أنـ يـتـذـذـبـونـ فـرـشاـ لـلـزـائـرـيـنـ كـمـاـ فـيـ بـلـدـنـاـ، وـمـمـاـ حـرـمـ مـنـهـ أـهـلـ مـالـطـةـ
مـنـ أـسـبـابـ التـرـفـهـ وـالـاسـتـرـاضـهـ الـاسـتـوـاءـ عـلـىـ الـأـرـائـكـ وـالـزـرـابـيـ الـوـثـيرـةـ فـلـاـ يـقـعـدـونـ إـلـاـ عـلـىـ
الـكـرـاسـيـ، نـعـمـ إـنـهـ يـتـذـذـبـونـ مـتـكـاتـ منـ خـشـبـ، وـلـكـ منـ دـوـنـ نـمـرـقـةـ عـلـيـهـاـ وـلـاـ حـشـيةـ،
وـنـاهـيـ بـمـ يـقـعـدـ يـوـمـهـ كـلـهـ عـلـىـ كـرـسـيـ خـارـجـ مـنـزـلـهـ، أـوـ يـظـلـ وـاقـفـاـ كـالـتـجـارـ، ثـمـ يـأـتـيـ
مـنـزـلـهـ لـيـقـعـدـ عـلـىـ كـرـسـيـ، فـكـأـنـمـاـ لـسـانـ حـالـهـ يـقـولـ مـاـ قـالـ أـبـوـ نـوـاـسـ:

وداوني بالتي كانت هي الداء

أو ما قال الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداویت منها بها

أو ما قال ابن دريد في مقصورته:

حينًا هي الداء وأحياناً بها من دائها إذا يهيج يشتفي

أو ما قاله البحترى:

تداويت من ليلي بليلي في الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

فائدة يحسن استطرادها هنا وهي: «أن مداواة الشيء بنظيره لا بنقيضه ليس من مخترعات أطباء أوروبا كما شاع، فقد ذكر العلامة الدميري في كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه؛ روى البخاري ومسلم والترمذ عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنهما – قال: « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلًا فسقاه، ثم جاءه فقال: يا رسول الله، إني سقيته عسلًا فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال – عليه السلام – اسقه عسلًا، ثم جاء الثانية والثالثة والرابعة، فقال عليه السلام: اسقه عسلًا، فقال: قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال ﷺ اسقه عسلًا صدق الله وكذب بطنه أخيك، فسقاه فبرئ» قال الدميري: «اعلم أنه قد اجتمع الأطباء في مثل هذا العلاج على أن ترك الطبيعة وفعلها، فإن احتجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية وأما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض». ا.هـ.

أما عادتهم في الزواج: فهو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة، وربما أقام على ذلك ثلاث سنين فأكثر، وعندى أن الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة أحوالها من أضر ما يكون، ولا سيما عند النصارى؛ لعدم إباحة الطلاق عندهم، غير أن طول العشرة أيضًا لا خير فيه؛ لأن البنت لا تزال مع خطيبها على أحسن الأخلاق حتى إذا تزوجت وعرفت أن لا فراق تخلقت بالأخلاق التي تعجبها، ولا يخفى أن النساء في بلاد الإفرنج هن اللواتي يمهلن الرجال؛ فالأتقنياء من الملاطيين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة، والذين هم من الوسط يؤثثون له منزله من فرش وكراسي وموائد وألات الطبخ وينقدونه شيئاً من الدرهم، والفلاحون يعطونه دجاجاً وبهضاً ونحو ذلك، وعلى الزوج أن يهادي حماد بأحدية، وعندى أن لكل من الغربيين الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المرأة وجهاً، وذلك أن الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم، فيحتاج أبو البنت إلى أن يأخذ من الزوج مهراً ثقة بأنه قادر على

القيام بما تعرض له، ولأن الرجال هم قوامون على النساء. أما الإفرنج: فلأن رجالهم غالباً يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة؛ لأن مؤنتهم غالية ونساءهم متشبهات بالرجال أخلاقاً، ولاستغنائهم عنه بكثرة المؤجرات، فوجب على المرأة في هذه الحال أن تساعد الرجل.

وأهل مالطة أشد الخلق تهافتاً على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان، وهو لا يشبعانه خبزاً وإداماً، وإنما يثق بأن زوجته تساعده على الشغل وتكتسب مثله، وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فإن المرأة تجري وراء من به صباحة دون مبالغة بالعواقب، فلا يهمها كون الرجل فقيراً أو جاهلاً أو شريراً، غير أن النساء هنا لا يحترمن أزواجهن، فكثيراً ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضور الناس، وكلهن إذا تكلمن يرتفعن أصواتهن إلى حد يبقى الغريب عنده مبهوتاً، وكانت عادتهن في القديم أن لا يتبرجن للشبان، ولا يخطرن في الطرق، ولا يتعلمن القراءة والكتابة، ومتنى خطبن احتجبن عن الأخطاب، وربما كان الرجل يخطب بنتاً بواسطة أمه وأخته من دون أن يراها، أما الآن فقد تخلقن بأخلاق نساء الإنكليز في مخالطة الرجال ومماشاتهم والذهاب معهم إلى المراقص والملاهي، وكثيراً ما تهرب البنت من حجر والديها، وتمكث مع من تهوى، وكثير من النساء الغنييات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طاعماً كاسيياً، والذي عليه حكمة النساء هنا إثمار الأقارب على الزوج فإنهن يقلن إن الزوج إذا مات يعوض بمثله ولا كذلك الأقارب، وهن كنساء الإنكليز في أنهن لا يتزوجن إلا من كان في سنهن، إلا أنهن يخالفنهن في كونهن يتزوجن على صغر، وإذا متى الرجل مع زوجته مشياً متحاذين لا متماسكيين بالأذرع كالإفرنج؛ إذ لا بد للمرأة أن تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفاً، وكثيراً ما تخرج الرجال وحدهم ويغادرون نساءهم في البيوت.

وأكثر أهل الحانات بمالطة متزوج، واللبيب منهم من يتزوج حسناً لتسقي الشرب وتناولهم، فيجتمع عندها من العساكر البحرية والبرية زمر شتى، والفجار من أهل مالطة الذين دأبهم كسب المال بأي وجه كان؛ يتظاهرون بأنهم طالبون للإحسان حتى إذا حصلوا على المهر فروا به إلى البلاد البعيدة، ثم إن المتعة أو التسرى أمر مستفيض عند جميع أهل مالطة، وقد تترك المرأة المتزوجة بعلها وتهوي في أثر من تهوى، وكذلك الرجال، وأعرف كثيراً من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته وأقام مع أخرى وأقامت هي مع آخر، وتسرى أبوه بناء، وأقامت بناته مع رجال أو صرن بغايا، والبغايا في هذه

الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جمال رائع إلا ما ندر، فلا تجد لإحداهم داراً على حدتها أو خادماً، لكنهن في الغالب غير وقحات ولا متهافتات على الرجال، بل هن لعمري أصون لساناً من المتزوجات وأكثر ماء وجه؛ إذ لا يحدقن في الرجال كالمتزوجات، ولا ينتقدن السخنة والزي، ولا يتسبثن مثلهن بالنعيمة، ويترددن على الكنائس كثيراً، وليس منهن من تزيد أن تموت في الذنوب كما هي عبارتهن، وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حجرهن أو يقلبنها تأديباً وتورعاً، وفي الجملة فإن أهل مالطة جميئاً رجالاً ونساءً يغلب عليهم الشبق والسفاح.

أما عادتهم في آداب الجنائز فكعادادة الإفرنج في أنهم لا يقيمون المآتم على الميت، فلا تعرف أن أحداً من الأهلين مات إلا من صحف الأخبار، وهي عادة حميدة، فإن العويل والنحيب فضلاً عن كونهما لا يحييان مائتاً ولا يردان فائتاً أو كما قال الشاعر:

ولم يرجع الموتى حنين المآتم

يلقيان الهم والرعب في قلوب السامعين، وإنما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة، ويدفنونه بعد أربع وعشرين ساعة، وربما أرسلت الجيران إلى أهل الميت وضيمة كما في بر الشام. أما عليه الإنكليز هنا فلا يدفنون الميت إلا بعد أسبوع في الأقل كما في بلادهم، وإذا مات لأحد المالطيين طفل صغير أقبلت عليه الأصحاب تنهئه قائلين نفرح لك بالجنة، ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن؛ ليكون سقوطه عليه تشبيهاً بال المسيح، وإذا مات أحد من ضباط العساكر شيعت جنازته وآلات الموسيقى معزوف بها وراءها والجندي مصاحبة لها، فإذا فرغوا من دفن الميت أطلقوا البنادق دفعة واحدة إشارة إلى أنه مات بعز دولته وسلطانه.

أما خلق المالطيين فالغالب عليهم السمرة، والربعية في القوام، وسواد الشعر والعيون، وغلظ الحواجب، وشدة البنية، وهم في الغالب أجمل من النساء، وكثير من النساء هنا لهن شوارب أو عوارض أو عنافق، ومنهن من تحلقها، ومن الإفرنج من يستحب ذلك فيهن، وقد أسلفت لك زهوهن وعجبهن بما يتحلى به من اللباس والحلي. أما أخلاقهم فالغالب على أعيانهم لين الجانب والبشاشة، فإذا سألت أحداً منهم عن شيء أجابك وهو باش بك مستأنس إليك، ومن طبعهم جميئاً الكدح والتبرير والاقتصاد، فلا يتحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة، ولا يتجمش أحدهم استخدام نفر أظهر لشأنه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الأعياد والزواج، ولا تتقلد نساء

الأغنياء منهم قلائد من الألماس وغيره، وأن الماجد منهم يزور صاحبه بدون احتفال، والغنى يذهب إلى السوق صباحاً ويشتري مؤنة يومه، وأن الماجدة تزور صاحبها ولا تلهي إداهاما عن الشغل، وذلك بأن تأخذ معها شيئاً تشغله به، وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكل أمره إلى الخادمة، وأكبرهم من عنده خادم وخادمة، وقد شاهدت رئيس أطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه، وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة، ومتي نشفت الثياب حلو الحبال، ووضعوها في محل مصنون، ورأيت أيضاً بعض القناصل ينصب رايته بيده، والقراء منهم لا يوقدون سراجاً في الليالي المقرمة، وأكثر الرجال يسلمون مصروفهم ليد نسائهم حتى إنهم يحتاجون بعدها إلى أن يطلبوا منها ثم التبع ونحوه، وجميع نسائهم مقتضيات ونشيطات إلى العمل، وقل منهن من تتعاطى التجارة.

ومن طبعهم جملة وتفصيلاً الفضول والتلهي بالإسفاف من القول والعمل، فإذا أكب أحد مثلاً للتقاط شيء من الأرض ازدحمت عليه زمرة، ولا يزال أحدهم يجري من جهة وأخر من أخرى حتى تغص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشيء يحدث أيامًا حتى يجد غيره، ومتي جرى أمر عرفت أصله ومبادئه وغايته من الجائين والذاهبين، ولا بد لكل من طفامهم أن يقص قبل رقاده كل ما جرى له أثناء النهار، وربما أخبر به غير مرة، وزور ورقة حتى يحال نفسه بعد ذلك صادقاً، وأن يتطلع وهو سائر في الطريق إلى كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال، وكثير منهم دأبهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوى، فإذا خرجوا بثوحاً في كل موضع، ولا يمكن أن ينقلوا حديثاً إلا ويزيدون فيه؛ فإذا ألم بعين إنسان قذى قال: إنه عمي، وبيدهون الرجل بأن يقولوا له قد رأينا زوجتك تتنظر من الشباك أو تحدث فلاناً أو فلانة، ويقولون للمرأة في حق زوجها مثل ذلك، وإذا اشتريت من أحدهم شيئاً يخبر أهلك به، ومتي رأوا غريباً نظروا إليه متفرسين، وتنصتوا لاستماع كلامه؛ ليعرفوا بأية لغة يتكلم، ويصفون حاله في وجهه بأن يقول أحدهم للآخر: «هذا الرجل من بلد كذا، وقد أطال المكث هنا، ولعله لا يمكث بعد، فإنه كان أولاً سليماً، وكأنه الآن مريضاً»، فيقول الآخر: «وإلى أين يذهب أعيشه يجد بلدًا خيراً من بلدنا وقد صار مقصد الواردين والصادرين»، وربما دعت إحدى النساء صواحتها لرؤيتها وهي تلکرها وتومي إليه، ولا تكاد تخطاب أحداً في الطريق ألا وترى زمرة قد أحدثت بك، ولا يكاد أحد يأتي أمراً إلا وتناقله الرواة، ويسيئون الظن في متزوج عاشر عزباً أو في عزب دخل دار متزوج، ولا

غرو فإن هذا شأن من لا يرى في بلده شيئاً يشغل الخاطر من الأمور الخطيرة، ويكون محصوراً في صخرة قرعاء راسبة في البحر، فإن حصر الفطن يكون من حصر العطن. ومن طبعهم التكشّف وبث ما هم فيه من الأحوال، والاستقصاء عن حال المخاطب، فإذا صحبت منهم أحداً لا يلبث أن يطلع على كمية دخله وخرجه، وكيفية عمله، ويقول ليت لي مالاً فأتنعم به، ولو كنت من المترفين لأكلت أطابيب المأكول، ولبسست أفتر الملبوس، فيا سعد من عاش عيش المترفين فأخبرني أنت ما دخلك، وكيف عيشك، ومن أين تشتري ثياب حاجتك، ومن يزورك ... وهلم جرا.

فأما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشيء سواه قيمة، ومنهم من يسافر إلى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه للامتهان والابتذال حتى إذا أحرز المال رجع إلى وطنه متبدحاً متشبعاً، يمرح في الأسواق مرح من ازداته النعمة وأبطره الحظ. ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل بلادهم، ولا تزال تسمعهم يتتجرون بها وبأحوالها، وإذا سألت أحداً منهم عنها أجابك بلسان ذلك مما كانت عليه من الغبطة والسعادة، وألت إليه من سوء الحظ، وهم في محبتها كاليهود في محبة صهيون، ومن الغريب مع هذا التفاخر أنك إذا ذكرت لأحدهم أفراد قومه لم تلقه راضياً عن أحد منهم، فأول نعت ينعته به قوله هو أبله أو شحيح، فكان قوله نحن المالطيين شأننا كذا يريد به وحدة نفسه.

أما مفاخرتهم بالألقاب فأكسي لهم من اللباس، فقل أن ترى أحداً منهم ممن يقرأ ويكتب إلا وله لقب طبيب أو فقيه أو بارون أو مركيز أو دكتور، على أنهم لا يملكون به مسكة من العيش، ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاغتياب، فيتعقبون الناس في مشيتهم ولبساتهم ولهجتهم وسخناتهم فلا يكاد يعجبهم شيء، وما من خصلة حميدة إلا و يجعلونها قبيحة، فإذا كان الإنسان كريماً قالوا إنه مبذراً، وإن كان مقتضاً قالوا إنه شحيح، ولا يرحبون مبررين على الإنكليز ومتظلمين منهم، ويידعون بأنهم من بعد قدومهم إلى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الأسعار حتى اضطروا إلى أن يهاجروا من بلادهم التي يصفونها بأنها حنينة، مع أن لدولة الإنكليز في هذه الجزيرة عدة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة، وترى عساكرها لا يرحبون يخرجون من حانة ويدخلون أخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى صار معلوماً عند الجميع أن الأسعار إنما تفلو بوجود هذه السفن، ثم إذا سافرتأخذ الذين ألفوا البيع لها في الدمدمة والتسلط من كсад ما عندهم، فإن الأهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينية واحدة منها.

هذا، وإن الإنكليز قد أنشأوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للجالطين في حسبان، فقد كان بعض أصحابي بالإسكندرية كلفني بأن أسأل ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفي بمالطة، وهل كان تحت حماية الإنكليز أو لا، فلما سأله أجابني بعد البحث بأن ديوان مالطة قبل قدوم الإنكليز لم يكن له دفاتر مصححة يُرجع إليها، وإنما كانت عبارة عن أوراق يومية غير منظومة.

على أن الملاطين أنفسهم يقرنون بأن حكامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم: لأنهم كانوا قد حرموا الزواج على أنفسهم حتى إنه تجمع في دار معدة للنفول نحو ألف ولد يزن في كونهم أولادهم، فكانوا يقولون فيه إنهم على قسيسين، يورون بذلك أن الحكام المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم، أو أن الأولاد يصيرون قسيسين، ولكن دأب أهل الجهالة أن يستطيبوا الماضي على الحاضر، ويطمعوا في أن الآتي يكون خيراً منهم، ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب، ولن يقدر أحد أن يستخلص منهم عشيراً، وما يكون له بين ظهارنيهم صديق إلا إذا كان يربى جرو كلب، ولعمرى لو أن مالطيّا افترى على غريب وخاصمه: لتآلوا على الغريب من كل أوب من دون أن يعلموا السبب، وهو مائلون بالطبع إلى البطش والفت، وأن كثيراً منهم لا يمشون إلا ومعهم سفاكيين يخفونها في ثيابهم، ومدخل العتاب بينهم مسدود، فأول سبهم قولهم يحرق دين القديس تبعك، ومن جهلهم أنهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فإن مراده عندهم في غير السب منقول من الطلياني، والظاهر أن المسلمين حين ولاتهم عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية، فتدارلوها هم من بعدهم، ومنهم قوم يتنصلون إلى ما يجري بين المرء وصاحبه أو زوجته من الحديث فإذا صاح لهم جر منفعة من ذلك انتهزوا ففرستها فوراً، واختلفتوا عليه أكذوبة، وللملاطين جميعاً لهجة واحدة وإشارات واحدة، فالرجال إذا وقفوا يهزون أفخاذهم من الورك إلى القدم، وإذا وصفوا أحداً بالنحول رفعوا السبابية، وأمللوا بها يميناً وشمالاً، وإذا وأشاروا إلى أمر معتمد سوي رفعوا الكف اليمنى ورجفوها، وإذا أرادوا الكثرة ضموا الأصابع على الإبهام وحركوها عليه، وإذا أرادوا النفي أمروا الأنامل من تحت الذقن، وإذا وأشاروا إلى حسن امرأة جمعوا الكف وأمروها على الصدغ إشارة إلى تعجيز سوالفها، وإذا أرادوا وصف شيء بالطيبة أرخوا اليد اليمنى ونفضوها مرات، وإذا سألوا الرجل عن زوجته قالوا له: كيف المرأة، وإذا زار أحدهم صاحبه فأول ما يحيي به صاحب المنزل ويجعل تحية الست الأخيرة، وإذا ذكرروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه، وإذا أوقدوا المصباح في المساء قالوا تحية

المساء، والفالحون لا يصرحون بعدد سنهم فيقولون مثلاً أربعون وعشرة، ولعل ذلك واصل إليهم من اليهود فإن العدد عندهم فيما أعلم مكرور.

ومن العجب هنا أن الناس يحبون التكاثر في كل شيء حتى في القبائح والرذائل إلا في العمر، ولا يتحاشى أحدهم إذا زارك أن يجيء معه بواحد أو اثنين جريأاً على عادة العرب، ويبادرون إلى تهنئة النساء حال وضعها، وتزدحم عليهما الجبيرة حتى العذاري، وتتأتي أصحاب الآلات ويعزفون أمام البيت وهي آخذة في الطلاق، ويزأطون عندها كما يزأطون في الأعراس.

أما تحمسهم في الديانة ففوق تحمس أهل أirlاند، وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين، وثروتهم وملابسهم الكنائية، وكما أن أهل أirlاند يسكون ويفحشون في عيد صان باطرك كذلك المالطيون يسكون ويفحشون في عيد صان باولو، بل في سائر الأعياد، وإذا استأجر مالطي داراً كان قد سكتها يهودي فلا يدخلها إلا إذا رش عليها القسيس الماء المبارك، وكذلك لو انتقل مثلاً مركب ونحوه من ملك مسلم أو إنكليزي إلى ملك أحدهم فلا بد وأن يعمده، وهم يعمدون أيضاً أجراس الكنيسة جميعها، وكذا الأجراس الصغيرة التي ينقس بها أمام القرابان، ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء، مما عرف بالأشابين، وقد عمدوا مرة جرساً في كنيسة صان باولو، وكان كفيله الحكم وزوجته؛ لكنه كان كاثوليكيأً، ويقولون إن دعوة الجرس مستجابة، فأول ما يحدث رعد أو برق يبادرون إلى الضرب به، ويعمدون المولود من أول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير، ولا بد من أن يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت، ومن يقف ينظر إلى القرابان وهم طائفون به من دون أن يسجد له، فقد عرض نفسه للخطر، وقيل: إنهم قتلوا مرة رجلاً من بحرية الإنكليز، وكان قد مر بهم ولم يسجد له، فتناولوه ضرباً ووخلزاً فحمل قتيلأً، ومرة أخرى وقف بهم أحد ضباط العسكر، وظل واقفاً فهجم عليه قسيس ورمى بقطاء رأسه فشكاه للحاكم، فأخبر الحاكم الأسقف بذلك فحبس القسيس في داره مدة ثم أطلقه، فذهب القسيس إلى رومية فأكرمه البابا وأعاده إلى الأسقف وأمره بإعلاء درجته، فلما بلغ الحكم ذلك نفاه من البلد، ويقولون إن شكل الصليب مخلوق في جثة كل إنسان، وذلك بأن يبسط يديه وهو رافع رأسه، وأن اسم مريم العذراء مرسوم أيضاً في كل كف فإن خطوط الكف الأصلية تشبه حرف الميم باللاتينية، ونحو من هذا ما وجدت في بعض الكتب العربية من أن اسم النبي ﷺ مكتوب في كل جثة؛ فإن الميم تشبه الرأس، والحاء تشبه الصدر، والميم تشبه السرة، والdal تشبه الساق، وفي

فصل في عادات المالطيين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم

أيام الصيام وفي يومي الأربعاء والسبت لا تصرح باعة الحلبي باسم ما يبيعونه، وإنما يقولون: هون تا الأبيض، ولفظة تا محرفة عن متاع بمعنى صاحب، كما يستعملها أهل تونس وطرابلس، وفي غير هذه الأيام يقولون حليب، ومع شدة تحمسهم هذا فإنهم بيعون ويشترون أيام الأحد والأعياد كما في غيرها، والمتدين منهم من يفتح فيها دكانه إلى الظهر فقط، وقد رأيت كثيراً من مدن إيطاليا، ولم أر فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يرى في مدينة فالطة، وقد كانت هذه التماثيل في الزمن القديم ملائكة يعتصم به أهل الجنایات، فكان القاتل إذا فر ولطى تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع، وقد بطلت الآن هذه العادة، وينبغي هنا أن نذكر أن المالطيين يأنفون من أن يطلقوا اسم النصارى على الإنكليز، وإذا تزوج إنكليزي مالطية على يد قسيس إنكليزي فلن زواجه غير شرعي.

فصل في الإنكليز وحكومتهم بمالطة

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الإنكليز لوقعها في بحر الروم كما لا يخفى، كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما ليس في بلادهم، ويمكن أن يقال إن الحكم هنا مالطي وإن يكن الحاكم إنكليزياً فإن القضاة وفقهاء الشرع وكتاب الصكوك والموظفين في الدواوين وشرطة الديوان جميعهم مالطيون، وليس على الناس مكس ولا ضريبة، ولا يدفع مكس في الكرنك إلا على الحنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جداً. ومن اقتني مركباً أو خيلاً أو استخدم خدمة فلا يؤدي على ذلك شيئاً، وكذا الذين يبيعون بقول الأرض وثمرها، وليس لخزنة الدولة من إيراد هذه الجزيرة، ولا فلس واحد، وإنما يصرف جميعه في لوازمهما، وحملته تبلغ تقريراً ١٠٤٢٠٠ وتفصيلها من ديوان الكرنك نحو ٦٥٧٠٠ ومن الدكاكيين ١٦٠٠ ومن المحاكم ٢٧٠٠، ومن بوسطة المكاتب ١٨٠، ومن تقييد الصكوك ١٣٠، ومن خراج الأرض ٢٣٧٠٠، ومن المزاد ٢٠٠، ومن الكرتونة ٣٣٥٠، ومن المراكب ٣٩٠٠، ومن مصالح آخر ١٧٠٠. يصرف منها مرتب وظائف وسنويات ٤٣٠٠ منها ٥٠٠ للحاكم ولحديقته ٤٠٠، ولكاتب سره وهو من الإنكليز ١٠٠٠، وللكاتب الثاني ٥٠٠، ولناظر الخزنة ٣٥٠، ولمدير الحسابات ٦٠٠، ولستوفي الأموال ٥٠٠، ولناظر الكرنطينة ٤٠٠، ولقسيس الحاكم ٥٠٠، ولأسقف مالطة ٢٠٠٠، وللمصروف على المستشفيات وغيرها من الأفعال الخيرية ٤٤٠٠، وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم ذكرها ٢٧٠٠، وعلى المرتزقين والمتقاعدين ١٣٢٥٠. أما مصاريف عسكر الإنكليز، وهم ثلاثة كتائب، فمن خزنة الدولة، ولل العسكري في اليوم نحو شلين، ويقال إن إيراد مالطة منقسم إلى ثلاثة أثلاث؛ الثالث الأول: للميري، والثاني: للكنائس من الوقف والتسبيل، والثالث: لأصحاب الأموال.

فقد تبين لك رفق دولة الإنكليز بحال المالطيين جير، ولو أن جزيرتهم كانت أكبر مما هي الآن بمائة مرة لما كان إيرادها كله مكافأً لمكس صنف واحد في إنكلترة، وحسبك أن مكس الملح وحده هناك ينفي على خمسة ملايين ليرة، ومن تساهلهم معهم أنهم يرخصون لهم في التطاويف بالقربان، وتماثيل القديسين سواء كانت من خشب أو جص أو غير ذلك مع أنه مغایر لعقائد كنيسة الإنكليز لا بل يطوف معهم جوقة من العسكر وهم عازفون بالآلات الطرب أمام التمثال، ولا غرو فإن الدولة فرضت الصنم في بلاد الهند اسمه جوجرنوت ٥٦٠٠٠ روبيه، وهي عبارة عن ٢٦٠٠٠ ريال، ولغيره أيضاً من الأصنام مرتب وافر ولكهان الهند وظائف يرتزقونها من الديوان في كل عام.

قيل: ويوجد في الهند نحو ١٤٨٥١ محلًّا مخصصاً لعبادة الهند، يبلغ مصروفها من طرف الدولة المذكورة نحو ٣٥٠٠٠ ليرة، وقد صُرِفَ مرة على إقامة عيد من أعيادهم ٤٠٠٠ روبيه مما لزم لهيكل الصنم، وفي هذه الأعياد الكبار تطلق المدفع من السفن والقلاع، ويمشي أمام الصنم طائفة العازفين من الجيش.

وفي عيد إلقاء جوز الكوكو في نهر الهند ينزل ذووا الأمر والحكم من الدولة، ويأخذونه من الكهنة بعد أن يُصلَّى عليه، ثم يلقونه في النهر، وحينئذ تنشر السفن راياتها المتلونة، وتطلق المدفع منها ومن الأبراج، وكذلك يفعلون في الأهلة إظهاراً لشعار الإسلام، وكل ذلك دليل على أن الدولة لا تبالي بمباهنة المذاهب والأديان في ممالكها، إذا كانت هذه الأديان غير مانعة من أداء ما يلزم أداء للخزنة من المال وللتاج من الطاعة، وقد حاول مرة حاكم مالطة، وكان على مذهب البروتستانت، أن يبطل عادة المسخرة يوم الأحد في المرفع على ما تقدم ذكره، فإن الإنكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه، وإذا بالمالطيين جميعهم تأبوا عليه، وما جوا يطوفون وهو يسبونه، ويقبعون عليه بألقاب سمة وإشارات منكرة، حتى إن بعضهم حاکاه في زيه وهيئته، وجعل على رأسه قرونًا، ثم أحدقوا بكنيسة الإنكليز وهم عاكفون على العبادة، وزاد ضجيجهم ولغطهم هناك حتى لم يسع الحاكم وحشمه غير الفرار إلى حدائقه خارج المدينة، وما زالوا مذ ذلك الحين يلحفون في طلب حاكم من مذهبهم حتى صدر أمر من الدولة بعزل الحاكم المذكور، فجاءهم حاكم من أهل أرلاند أكثر تحمساً منهم، وهو الذي وقف شاهداً على معمودية الجرس.

ومن سنن الإنكليز في بلادهم أن تغلق جميع الحوانيت في يوم الأحد إلا دكاكين العقارية والحانات التي تباع فيها الجمعة والشраб، إلا أن هذه تغلق أيضاً عند إقامة

الصلة، فاما في مالطة فلا حرج على أحد منهم أن يبيع ويشتري فيه أي شيء كان، ثم إنني لست منمن يتصدون إلى تبديل القوانين والأنظمة، ولا منمن يتحرشون بالحكام مخافة أن يعزلوني عن ولاية قلمي، ولا يتأتى لرجل مثلـي أن يصلح شريعة دولة قديمة ولا سيما شريعة الإنكليز، فإنـها عندـهم لا تقبل التبديل ولا التحرـيف، وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام سـنة، إلا أنـ بيـاء أصولـهم وأحكـامـهم تـظـهـرـ لـبـصـرـيـ الـكـلـيلـ الـقـاـصـرـ فيـ غـايـةـ الـبـعـدـ عـنـ الإـدـرـاكـ، أـمـاـ أـولـاـ؛ فـلـأـنـ قـصـاصـ كـثـيرـ مـنـ الإـسـاءـاتـ وـالـجـنـيـاتـ يـفـتـدـيـ عـنـهـمـ بـغـارـامـةـ المـيـريـ، فـإـنـاـ اـفـتـرـىـ مـثـلـاـ لـئـيمـ عـلـىـ كـرـيمـ وـلـطـمـهـ بـحـضـرـةـ النـاسـ أـوـ هـتـرـ عـرـضـهـ غـرمـ شـيـئـاـ مـنـ الدـرـاـمـ لـلـخـزـنـةـ وـخـرـجـ مـنـ بـيـنـ يـدـيـ القـاضـيـ عـلـىـ أـشـرـ خـلـقـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ، فـتـكـوـنـ مـصـلـحـةـ الـحـكـامـ عـلـىـ هـذـاـ اـزـدـيـادـ الـخـصـامـ وـالـشـرـ بـيـنـ النـاسـ؛ لـأـنـ خـيـرـهـ إـنـماـ هوـ مـنـ شـرـ الطـفـاغـ، فـيـاـ لـيـتـ شـعـرـيـ مـاـ نـفـعـ الـكـرـيمـ بـعـدـ أـنـ يـُـسـبـ وـيـفـتـرـ عـلـيـهـ أـنـ يـرـىـ غـرـيمـهـ مـؤـدـيـاـ لـلـمـيـريـ ثـمـ عـرـضـهـ وـشـرـفـهـ، وـكـيـفـ تـصـحـ التـسـوـيـةـ بـيـنـ الـعـبـادـ وـالـهـ تـعـالـىـ لـمـ يـسـوـ بـيـنـهـمـ، بـلـ فـضـلـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ فـجـعـلـ اللـيـلـ يـبـذـلـونـ مـاءـ وـجـوهـهـمـ، وـيـمـتـهـنـونـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ تـحـصـيلـ مـعـيـشـهـمـ، وـجـعـلـ ذـوـيـ الـأـدـبـ وـالـعـرـضـ يـنـزـهـونـ أـنـفـسـهـمـ عـنـ الشـيـنـ وـالـمـنـكـرـ، فـهـلـ مـنـ الـعـدـلـ أـنـ لـاـ يـجـعـلـ بـيـنـهـمـ فـرقـ فـيـ الـأـحـكـامـ وـالـمـعـاـمـلـةـ، وـإـلـاـ لـزـمـ أـنـ نـقـولـ إـنـ مـنـ يـسـاـوـيـ بـيـنـهـمـ وـهـوـ الـحـاـكـمـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـكـوـنـ مـساـوـيـاـ مـنـ فـرـضـ عـلـيـهـ الـحـكـمـ.

فلـوـ تـعـمـدـ رـجـلـ مـثـلـاـ لـلـطـمـ الـحـاـكـمـ عـلـىـ وـجـهـهـ وـهـوـ جـالـسـ عـلـىـ كـرـسيـ الـحـكـمـ، أـفـعـسـاهـ كـانـ يـغـرـمـ دـرـيـهـمـاتـ لـخـزـنـةـ الـدـوـلـةـ، وـهـلـ مـنـ الـعـدـلـ أـنـ تـرـىـ لـئـيمـاـ يـنـازـعـ كـرـيمـاـ عـلـىـ شـيـءـ هوـ أـدـنـىـ مـنـ أـنـ يـخـطـرـ بـيـالـهـ، نـعـمـ تـصـحـ التـسـوـيـةـ بـيـنـ غـرـيمـيـنـ تـجـهـلـ حـالـهـمـ، فـأـمـاـ الـحـاـكـمـ الـشـرـعـيـ الـذـيـ يـعـرـفـ أـهـلـ بـلـادـهـ، وـيـخـبـرـ فـاـضـلـهـمـ مـنـ مـفـضـلـهـمـ، فـلـاـ يـنـبـغـيـ لـهـ أـنـ يـسـوـيـ بـيـنـ كـلـ مـدـعـ وـمـدـعـيـ عـلـيـهـ، كـمـ أـنـهـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـوـزـنـ الـذـهـبـ فـيـ مـيـزـانـ الـخـشـبـ، وـفـضـلـاـ عـنـ ذـلـكـ فـإـنـ مـنـ ضـرـبـ مـثـلـاـ مـرـةـ لـاـ يـصـحـ أـنـ يـجـرـيـ عـلـيـهـ حـكـمـ مـنـ دـأـبـهـ وـدـيـدـنـهـ الـضـرـبـ، وـإـلـاـ لـزـمـ أـنـ نـقـولـ إـنـ أـهـلـ الـلـغـةـ أـعـقـلـ وـأـحـكـمـ مـنـ أـهـلـ الـشـرـعـ حـيـثـ فـرـقـواـ بـيـنـ الـضـارـبـ وـالـضـرـوبـ. هـذـاـ وـلـاـ كـانـ الـظـاهـرـ مـنـ حـكـمـ الـإنـكـليـزـ أـنـ مـبـنـيـ عـلـىـ التـسـوـيـةـ كـانـ الـأـوـبـاشـ مـنـ أـهـلـ مـالـطـةـ مـثـلـ أـهـلـ الـفـضـلـ مـنـهـمـ فـيـ أـنـهـ لـاـ يـقـبـلـ لـلـفـاضـلـ كـلـامـ عـلـىـ الـمـفـضـلـ، وـلـاـ يـفـصـلـ بـيـنـ الـلـئـيمـ وـالـكـرـيمـ مـنـهـمـ غـيرـ الشـهـودـ، وـإـنـ كـانـ الـلـئـيمـ مـعـرـوفـاـ بـلـوـمـهـ وـرـذـائـلـهـ، وـرـبـيـماـ طـلـبـتـ بـاعـةـ الـمـاـكـوـلـاتـ فـيـ شـيـءـ قـيـمـتـهـ دـرـاـمـ؛ عـشـرـةـ دـرـاـمـ، فـلـاـ يـمـكـنـ لـلـمـشـتـريـ أـنـ يـعـارـضـهـمـ بـشـيـءـ، وـإـذـاـ أـبـيـ أـنـ يـشـتـريـ لـمـ يـخـلـ مـنـ تـطاـوـلـ الـبـائـعـ عـلـيـهـ، وـقـسـ عـلـىـ ذـلـكـ أـصـحـابـ الـقـوارـبـ وـالـحـمـالـيـنـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ السـفـلـةـ.

فأي إنصاف هنا أن يرخص لهؤلاء في هذا التعدي والطغيان، ثم يقال إن ذلك تسوية، ثم أي إنصاف أن يرخص للباعة في أن يخالطوا المwayne، وأن يضعوا السمك واللحم الذي نشم في الخموم في الثلج حتى يتطرى، وفي أن يبيعوا الفج من الأثمان، وأن يجعلوا سعر الشيء الواحد متفاوتاً على قدر تفاوت الساعات، وأن تطفو السكارى في الأسواق ضاجين زائدين بالغناء واللغط، ثم يقال إن ذلك حرية، لعمري إن فلق المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية؛ لأن الحرية إنما تكون حميدة مفيدة ما إذا روعي فيها مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بالعكس، فتبّأ حرية تفضي إلى تسوييد اللئيم على الكريم، وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سندكره في محله، وسببه أنه لما كان ذروا الأحكام هنا وهناك لا يأكلون سوى أطيب المأكول ولا يشربون سوى أفسر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور، وظنوا أن سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله، ومن فساد الأحكام هنا أيضاً أنه إذا كان لأحد حق على آخر وأراد سجنه لزمه أن يقوم بمؤنته، وإن يكون المديون لصاً أو متعدياً وكان الحق عادلاً فاضلاً، ولا يخفى أن في ذلك حظراً للثقة والائتمان؛ لأن حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئاً، وأن السجن لكثير من الأشقياء المناهيس خير لهم من خصاصهم، ولما كان هؤلاء السفلة مفرطين في القبائح والشروع على ما ذكرنا كان من أهم الأشياء على الحر أن يتتجنبهم ما أمكن، وليس عليه أن يحترز من الأعيان وذوي الأمر والنهي، فإنهم لا يتطاولون على أحد لما يعلمون من قضية التسوية، بخلاف العادة في البلاد الشرقية فإن أصحاب المناصب هم الذين يخشى بأسمهم وشرهم.

ومن فساد الأحكام أيضاً: أن القضاة تقبل شهادة أي شاهد كان سواء كان سكيراً أو شريراً، وكذا شهادة النساء والأولاد مقبولة، فمتي قبل الشاهد الصليب مضت شهادته، والإإنكليز يحلقون على الإنجيل، ومتي أقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وإن تكن من الأمور التي كتمها أولى من إذاعتها وهنا أيضاً أنكر التسوية؛ لأنه إذا حدث مثلاً أمر مرة بين والد وولده أو رجل وامرأته وكانوا من ذوي الفضل، وأفضى ذلك إلى التحاكم لا ينبغي أن يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بأنه سرقه أو شتمه، ثم إن من الأصول المقررة عند الإنكليز أن كل من يدخل أرضاً تحت حكمتهم يصير حراً وتجري عليه أحكامهم، وقد جاء مالطة كثيراً من كان لهم عبيد وإماء فأجبروا على تحرير رقيتهم، ومن يقم خمس عشرة سنة ويعلم أنه كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك حق له أن يطلب الحماية الجنسية، ولكن يلزمته أداء نحو عشرين ليرة، وهذه الحماية هي أدنى من حماية الإنكليز التي تعطى من بلادهم كما سنبين ذلك.

وللحاكم عشرة مشيرين من أعيان الأهلين، يشاورهم في المصالح العائدية إلى بلادهم، وفي كل خمس سنين يُعزل، وربما أقام أكثر إذا طلبت الرعية ذلك، وفي قصره ستة عشر ألف بندقية وعشرون ألف مزراق وأربعة آلاف درع وألفا طبنجة.

أما أخلاق الإنكليز هنا فهي مغایرة لأخلاق جنسهم في بلادهم، فلا يصح لمن رأهم أن يحكم بأن جميع الإنكليز مثلهم، فإن هؤلاء متكبرون صلفون مع البخل والشح، وبئس الكبر والشح إذا اجتمعا، وما أحد منهم إلا ويظن بأنه هو فاتح هذه الجزيرة ببأسه وسيفه، ولا سيما ضباط العسكري، فإنهم على قنة الصلف والتبذخ، وإذا دخلت على أحد من هؤلاء الفاتحين وهو يأكل فلا يتكلف أن يدعوك إلى طعامه، بل ربما غضب على جميع أهل داره على عدم منعهم إياك من الدخول، كما قلت:

توفهم غولاً قد اغتالها	إذا زرت أرحبهم دارة
فقطوراً ويحکم أقفالها	يغلق أبوابه إن نوى
يظن المعالي قد طالها	ومن كان فيهم له خادم
وبثك من زوجه حالها	إذا تتبواً كرسيه
وأن المآثر قد نالها	يرى أنه محسن مفضل

وإذا زرته وأقمت عنده إلى وقت غدائه وأردت الذهاب فلا يدعوك إلى الطعام معه، ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة، فإن أحدهم ربما أقام شهراً تماماً من دون مشاهدة الناس استغناه عنهم برؤية ما عنده من فاخر الماتع وبقراءة صحف الأخبار، أما عندنا فالأخبار لا تعرف إلا بالنقل والرواية، فلم يكن لنا بد من الاجتماع ليلاً، ومن سوء أدب بعضهم هنا أنهم يجعلون في أنعناقهم شريطة فيها زجاجة، فكلما لمحوا امرأة فزعوا إلى الزجاجة؛ ليستبتوها بها، وفي ليلي الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زيرة، وهو ناظر إلى ذلك بعين شكرى من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها، وكما أن الرجال هنا ليسوا براموز حسن على أهل إنكلترة كذلك كانت النساء مخالفات لمن في بلادهن، فإنهن هنا بمعزل عن الحسن والجمال، وأكثرهن فقم وشوه، ومن الغريب أنه مع ترفةهن وركوبهن الخيل في كل يوم غالباً فلسن يرى فيهن بادنة، ولا فضيلة لهن إلا في كونهن يحسن القراءة والكتابة، ويؤسسن العلم في أولادهن على صغر، فإن الولد لا يبلغ هنا خمس سنين إلا ويكون قادرًا على القراءة، أما عندنا فيذهب سن الصبا باطلًا، فمتأخرًا أخذ بعد ذلك في التعلم وجده بعيد المأخذ صعب المرتقى، وأشهد له أن نساء بلادنا

يترشح في المعارف على صغر لفضلن نساء جميع الإفرنج فضلاً باهراً؛ فإنهن أرق أذهاناً وأسرع فهماً، والحاصل أن الإنكليز هنا رجالاً ونساءً ليسوا من خيرة بلادهم، وأن كبرهم وعtooهم وجشعهم جعلهم مبغضين عند جميع المالطيين، فما من مالطي تسنح له فرصة لأنى إنكليزي إلا وينتهزها، فأما المتوظفون منهم في خدمة الحكومة فإنما هم راضون عن أصحاب السياسة لا عن أفراد الإنكليز المجاورين لهم.

فصل في موسيقى أهل مالطة وغيرهم

قبل الدخول في هذا الباب الحرج ينبغي أن أستأذن أصحاب أهل الفن في التطفل على هذا النحو، وإن كنت لا أعد من جملتهم غير أنني علمت منه ما يمكنني أن أعرف المستقيم منه من غير المستقيم، فأقول؛ قال بعض الفلاسفة: إن فن الموسيقى فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن إخراجها بالقياس، فمن أول المنطق بالاصطلاحي قال معناه إن أركان هذا الفن ذهنية بناء على أن المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع والذوق، فيرسم السامع ما يسمعه من الأصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله، وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التي ترسخ في مخيلته تلك الترجيعات، ولهذا كان المعمول عليه في تحصيل هذا الفن ملكرة الذوق.

أما الإفرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت وإيقاعه داخلًا تحت حس المشاهدة، فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت الحروف على المعاني، فلم يكن تحصيله متوقفاً على ذاكرة عظيم معاناة كما في السابق، فمن كان منهم عارفاً بخارج النغم ورأى تلك العلامات أمكن له أن يخرج عليها أي صوت كان من دون أن تتقدم له سابقة فيه، وإذا اجتمع منهم عشرون رجلاً وكانت أمامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة، ويريد على هذا التأويل أنه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق ل كانت واحدة الاستعمال كما أن المنطق واحد الضوابط، على أن الناس متغایرون فيها تغایرًا شديداً، فإن ألحان العرب لا تطرب غيرهم، بل هؤلاء أيضًا مختلفون، فإن أهل مصر لا يطربون لألحان أهل الشام، وألحان الإفرنج لا تطرب أحدًا من هؤلاء.

وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوي وهو المراد هنا، فقد جاء في شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتأدبين ابن نباتة ما نصه:

النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على إخراجه فاستخرجته الطبيعة
بالألحان على الترجيع لا على التقاطع، فلما ظهر عشقته النفس وحن إليه
القلب. ا.هـ.

والمراد بالترجيع لا التقاطع أن يكون الصوت ممتدًا ينحى به لا متقطعاً كأصوات الهجاء، فإذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من المنطق على هذا التأويل لزم أن نقول إن لكل جيل من الناس محاسن في الغناء مقصورة عليهم فقط، فإن لكل لغة محاسن وعبارة لا توجد في غيرها، والواقع بخلاف ذلك فإن لغتي الصين والهند مثلاً تشتملان على محسنات لا توجد في غيرهما إلا أن أنغامهم خالية من ذلك، أما ألحان الإفرنج فلا يطرب لها منا إلا من ألفها، وهي عندهم على أربعة أنواع:

الأول: وهو أحسنها ما يتغنى به في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيشه وخفضه ورفعه وترقيقه وتخفيمه وترجيفه، وفيه تدخل حماسة وتحريض وتذمير.

والثاني: وهو يشبه ما يرثّل به في الكنائس، ولا يكاد يكون به ترجيف.

والثالث: ما يغنى به في المحننات والبُث، وفي هذا النوع يستعملون غناء رقيقاً أشبه بالنجوى، فمن يسمعه يلحن ما المراد به، وإن يكن جاهلاً باللغة، كما إذا رأيت شخصاً مجھشاً للبكاء فإنك تعلم إجهاشه بالبديهة وإن لم تعرف سببه.

والرابع: ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات، وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر، وتطريبه إنما هو من حيث إنهم يصلونه بأشیاء كثيرة وحركات مضحكة، فيضحكون فيه ويقهرهون ويبكون ويتباءبون ويعطسون، ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها، وفي كل من هذه الأنواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جدًا، وأكثرها في النوع الأخير، ويوقفون عليه أفالاً مولدة غريبة، وكما أن لهم غناء مضحكاً كذلك لهم رقص يحمل الثقل على القهقةة. أما العرب فإنهم يقولون إن

الرصد يشجي، والسيakah يفرح، والصبا والبيات يحزنان، والحجازي ينعش وينغش ... وهلم جرا، والفرق بين الفريقين من عدة وجوه:

أحداها: إن الإفرنج ليس لهم صوت مطلق للإنشاد من دون تقييد بتلك النقوش، فلو اقتربت على أحدهم مثلاً أن يغني بيتهن ارتجالاً كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر، وهو غريب بالنسبة إلى براعتهم في هذا الفن؛ لأن الإنشار على هذا النوع الطبيعي، وقد كان عندهم من قبل أن تكون النقوش والعلامات، فيا ليت شعرى كيف كانوا ينشدون قبل أن نبغ غويدو داريتوسو في إيطاليا.

الثاني: إنه إذا اجتمع منهم عشرة مغنن، وأرادوا إخراج موشح أخذ بعضهم في بعض أركانه من مقام، وبعض في البعض الآخر من مقام غيره، فإن كانت الأغنية مثلاً من الرصد غنى واحد جزءاً من هذا المقام بصوت جهير، وأخر جزءاً من النوع بصوت رقيق، وأخر جزءاً من الجواب بصوت عالٍ فيسمعه السامع من عدة مقامات، ويسمى ذلك عندهم هرموني؛ أي إن الأصوات تتآلف على الغناء، وفي هذه الطريقة فوائد ومحاسن؛ أما الفوائد فلأن السامع يسمع في وقت واحد موشحاً واحداً من عدة مقامات بأصوات مختلفة، فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض، وأما المحاسن فلأن السمع لا يمكن كل التمكن من إدراك جميع مخارج تلك الأصوات المتغيرة، وهذه الطريقة عندي على الآلات أحسن منها على الأصوات.

الثالث: إن غناء الإفرنج هو مثل قراءتهم في أنه لا يخلو عن حماسة وتهيج فضلاً عن التشويق والتقطيب والترقيص، فغناء الحماسة والتهيج هو الذي يكون به ذكر القتال، وأخذ الثأر والذب عن الحقيقة، فإذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه، أما الغناء العربي: فكله تشويق وغرامي، وأجدره أن يكون جاماً لمعنى الطرف، وهو خفة تصيب الإنسان من فرح أو حزن، فإذا سمع أحد منا صوتاً أو آلة شغف قلبه الغرام فبدت صباته وحنت نفسه كما يحن إلى إلهه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحاً، ولا غرو إن صعد منه الزفرات وأندرف العبرات، فإن السرور إذا تفاقم أمره وتكامل بدره دب فيه محاق الشجن، واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد، ويشتغل بنار من الهياق، وعلى ذلك ورد قولهم: طربه وشجاه من الأضداد.

الرابع: إن الإفرنج لا قرار لأصواتهم إلا على الرصد. نعم، إن جميع الأنغام يوجد لها مقامات في آلاتهم، بل توجد أنصافها وأربعاعها إلا مقامين منها لا أنصاف

لهم إلا أنهم لا يقررون إلا على المقام الأول، وقد سمعت منهم الراوبي والبوسليك والأصفهاني، أما غيرها فلم أسمعه قط، بل قد سمعت منهم بعض أغانٍ من أغانينا أوقعوها على آلاتهم، فكانت كلها رصداً، وقد والله طالما وقفت السمع على أن أسمع منهم أنغامنا فخبت حتى اعترضني الحيرة، فإني من جهة كنت أرى آلاتهم بدعة الصنعة على كثرتها، وأفكرة في أن العلوم انتهت إليهم والفنون قصرت عليهم، وإن عندهم في هذا الفن بدائع كثيرة فاتتنا على ما سبق ذكره، ومن جهة أخرى أرى أن برأعتهم كلها إنما هي من مقام الرصد، نعم إن هذا المقام هو أول المقامات، وأنه يعني منه في مصر وتونس أكثر مما يعني من غيره إلا أن فضل الصبا والبليات والحجازي لا ينكر أيضاً، ثم أعود فأقول: لا غرو أن يكون قد فاتهم أيضاً بدائع في هذا الفن كما فاتهم في غيره أشياء أخرى، وذلك كثرة بحور العروض عندنا، وكبعض محسنات الكلام، وكالسجع في الكلام المنثور؛ إذ ليس عندهم سوى المنظوم، وهو في الإنشاء كالصوت المطلق في الغناء، فإن السجع مقدم على النظم، وكعجزهم أيضاً عن لفظ الأحرف الحلقية، وقد سألت مرة أحد أهل الفن منهم فقلت: إن المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوي، وكذا أنصافها فبقي الكلام على استعمالها، فإنما لو استعملنا مثلاً نصفاً من الأنصال مع مقامه وأنت تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا أنه خروج فمن أين تعلم الحقيقة، فما كان منه إلا أن قال: إن هذا الفن قد وضع عندهم على أصول هندسية لا يمكن خرمها، فلا يصح أن يستعمل مقام إلا مع مقام آخر، على أنني كثيراً ما سمعت منهم خروجاً فاحشاً على شغفي بألحانهم، وقد شاقني يوماً وصف المادحين إلى سماع قينة بلغ من صيتها أنها غنت في مجلس قيسر الروس، فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها وطول نفسها في الغناء، إلا أنني سمعت منها خروجاً بحسب ما وصل إليه إدراكي، ولو تيقن أن ألحان الروم التي يرتلون بها اليوم في كنائسهم هي كما كان يتغنى به في أيام الفلسفه اليونانيين لكان ذلك دليلاً آخر على قصور ألحان الإفرنج، فإن أنغام الروم مقاربة لأنغامنا.

الخامس: أن أكثر أصحاب الآلات عندهم لا يحسنون إخراج أنصار النغم وأرباعها ما لم تكن مرسومة لهم إلا صاحب الكمنجه، فأما الناي ففيه خروق شتى غير السبعة لكل اثنين منها طباقه إذا سد منها منخر جاش منخر، غير أن الصنعة في إحكام سدها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الأصوات عندنا، وهذه الأنصال

والأربع في النغم مثل الروم والإشمام في النحو، وفي الجملة فإن للإفرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا، وأخرى لا يمكن محاكاتهم بها، ومما مر تفصيله تعلم أن إنشادهم في الحماسة والفحريات غير معروف عندنا، وأن مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم، ومن الغريب أنه مع كثرة ما عندهم من الآلات والأدوات فقد فاتهم العود على محاسنه والناي من القصب، فإن نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا، على أن أكثر العلماء قرر أن أصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب، وقال بعض: إنه عن صداح الطير، وغيره إنه عن خرير الماء، وأخرون إنه عن أصوات مطارق طوبال قين، وأول من ضبط أصول هذا الفن يوبال، وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، وكان اختراع الناي في سنة ١٥٠٦ ونسب إلى هيجنيس.

وعلى ذكر مطارق القين فقد ورد في شرح مقامات الحريري في ترجمة الخليل أن أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب به الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي، وكان سببه أنه من بالبصرة في سوق القصارين فسمع الكذنبق أي المطرقة بأصوات مختلفة؛ سمع من دار «دق» وسمع من أخرى «دق دق» وسمع من أخرى «دق دق» فأعجبه ذلك، فقال: والله لأضعن على هذا المعنى علمًا غامضًا، فوضع العروض على حدود الشعر ... إلخ، وأشجى آلة من الآلات الإفرنجية هي «الكنشتينة» وهي فرع من فروع الأرغن، ونحو من المنفخ يفتح وبطريق، وهي من مخترعات وينسطون، ومن المعلوم أنه كلما رقت طباع الناس ولطفت أخلاقهم كانوا إلى المحاضرة في مضمار الطرب أسبق، ولشذا عبيره أنسق، فإن المولع بغير المعاني، ونكات الكلام لا يسمع الألحان إلا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجداً قبل أن يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء، ولا سيما إذا كان الإنشاد معربياً والوقت معجبًا.

وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدي:

من لم يحركه العود وأوتاره، والربيع وأزهاره، فهو فاسد المزاج بعيد العلاج. وقال أفلاطون: من حَرَنْ فليسمع الأصوات الطيبة، فإن النفس إذا حزنت خمد نورها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما حمد. وقال إسحق بن إبراهيم الموصلي: شر الغناء والشعر الوسط؛ لأن الأعلى منها يطرب والدني يضحك ويعجب، والوسط فلا يطرب ولا يضحك. ا.هـ.

ومن الغلط البّين أن يقول أحد إنني لم أطرب لهذه الألحان؛ لجهلي باللغة، فإن أصل الطرف إنما يكون عن الصوت لا عن الكلام المتفنى به.

أما أهل مالطة فإنهم في الغناء مذبذبون كما في غيره أيضًا، فلا هم كالأفرنج ولا كالعرب، فأهل القرى منهم ليس لهم إلا أغاني قليلة، وإذا غنوا مطواً أصواتهم مطّاً فاحسّاً تنفر المسامع منه فمضاهاتهم للأفرنج هي في اقتصارهم على الرصد، وللعرب في أنهم إذا اجتمع منهم طائفة للغناء لم يخرجوا أصواتهم إلا من مقام واحد، ويقوم أحدهم ينشد ويرد عليه الباقي، أما الأعيان منهم فإنهم يتعلمون الألحان الطليانية، وأكثر العميان بمالطة صنعتهم العزف بالألات، فمتنى قدم أحد من سفر أو ولد له ولد أو تزوج أو عمد ولده أو ترقى إلى رتبة أو كسب مكسيّاً جزيلاً؛ بادروا إلى تهنّته، ولا يخفى عنهم شيء مما يحدث في بلدتهم، ويقال إن إحدى بنات الأعيان فجرت مرة، وكتمت حبلها عن أهلها، ثم غابت أيامًا حتى وضعت ولدتها، فلما رجعت إلى بيتها أقبلت زمرة منهم يعزفون أمام الدار، فسألهم أبوها: ما سبب ذلك؟ فأخبروه بوضع ابنته فقطن حينئذ لغيابها، والذي يظهر لي أن الأنغام التي كان يتغنى بها في أيام الخلفاء كانت أشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة، واللازمة التي تستعملها المغاربة في غنائهم هي دي دي، كقول أهل مصر والشام يا ليل وكقول الترك أمان، وفي القاموس: ما كان للناس حداء، وضرب أعرابي غلامه وغضّ أصابعه فمشي وهو يقول دي دي، أراد يا يدي، فسارت الإبل على صوته، فقال له: الزمه وخلع عليه، فهذا أصل الحداء. ١.هـ.

وأسماء الأنغام عند المغاربة مخالفة لأسمائها عندنا، وهم يزعمون أنهم نقلوا هذا الفن عن أهل الأندلس، وأهل تونس أكثر ترسلاً منهم، والظاهر أن المولاي من خصوصيات أهل مصر والشام، وكذلك الناي والقانون، والغالب في من غنى صوتاً وأجاد أن يطنّ أن لم يبق ذو أذن واعية إلا وسمعه، وإذا لم يجد ألفي لنفسه عذرًا، وذلك بأن يتنحنح أو يسعل فيحييل القصور على شيء طرأ عليه، هذا إذا كان المغني غير متخذ الغناء له صنعة، فاما من درب فيه فقل أن يعرض له خروج؛ لأن الصوت كالآلة كلما زاد استعمالاً زاد جلاء، وكما أن غناء أهل مصر أطرب وأعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين أعلى من غناء سائر الإفرنج؛ وذلك لكثرّة ما في لغتهم من الحركات، فهي مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض، ولكن أصواتهم صادرة عن صدورهم.

أما لغة الإنكليز فلكلّة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذي فيه مد وترجيع إلا بتحويل الألفاظ عن وجهها، وخرم قواعد النطق بها، وإنما يحسن بها الأغاني المضحكة،

وأصواتهم كلها من أزوارهم، وكأن المغني منهم يغنى وقد غص بلقمة، وجميع الإفرنج يقولون إن غناء العرب من خياشيمهم، وعلى فرض تسلیم ذلك فما يكون منافياً للإشجاع والتطریب فإن اللغة الفرنساوية لا يتکلم بها إلا مع الغنة، وهي مع ذلك أشجع لغات الإفرنج جميعاً، وربما طرب لها من سمعها أول مرة من عمره. وقد رأيت من الإفرنج من كان يطرب للأنغام المصرية، ولكن غب طول مکث بمصر، وكان في أول أمره يائف منها، ويقول إنها محزنة، ولا يخفى أن للعادة تأثيراً في جميع الأحوال وخصوصاً في المنطق والألحان، وناهيك أن الأطفال عندنا وعند الإفرنج ترقد على العناة فتعتاد عليه مذ الصبي، فإذا امترج بأمزجتها كان سماع غيره ضد المألف، وأهل مالطة يرقدون أطفالهم على ما هو أشبه بنواح الندابات في بلادنا، ولولا العادة لما عجزت الإفرنج مع حكمتها عن النطق بأحرف الحلق، وهي التي وفت حق نسائهم جزاً وبخست نسائنا حقهن.

فصل في لغة أهل مالطة

اعلم صانك الله عن الزلل، وسددك إلى صواب القول والعمل، أن اللغة المالطية فرع من دوحة العربية وشيشة من تمرها، وهي يتكلم بها في جزيرتي مالطة وغودش، وسواء في ذلك العامة والخاصة، غير أن هؤلاء يتعلمون أيضًا الطليانية والإنجليزية لاحتياجهم إلى الأولى في المعاملات والتجارات وكتب الشرع وغيرها، ولتنافسهم في الثانية؛ لكونها لغة أرباب الحكم، وذلك لأن اللغة المالطية لم تدون فيها علوم، ولم يشهر فيها كتب، فهي عبارة عن ألفاظ يتداولونها فيما هو من مقتضيات الأحوال الساقطة دون أن تفي بحاجتهم فيما يقصدونه من وصف أو نسيب أو وعظ، فإذا أرادوا ذلك فزعوا إلى الطليانية، وهو دليل على سفالة طبعهم حيث لم يحافظوا من اللغة إلا على المبتذل، وإذا أخذوا من الطليانية ما مست الحاجة إليه ملطفوه، وألحقوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلاً «ما يرنشيش» أي ما يوافق «كونشيت» أي عرفته، ففي الأول ياء المضارعة والشين التي يزيدونها بعد النفي كما تزداد أيضًا في اللغة المتداولة الآن في مصر والشام، وهي مختصرة من لفظة شيء، وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب، وكقولهم «عندي بياشير» أي سرور، فيجعلون الظرف خبراً مقدماً، والنكرة مبتدأ مؤخراً، فهو جارٍ على قواعد العربية، وقد قلت فيها:

تُبَّا لِهَا لِغَةٌ بِغَيْرِ قِرَاءَةٍ
تَتَبَلَّبُ الْأَلْبَابُ فِي تَرْكِيبِهَا
أَذْنَابُهَا وَرَءُوسُهَا عَرَبِيَّةٌ
وَكِتَابَةٌ عَيْنٌ بِلَا إِنْسَانٍ
وَيَكُلُّ عَنْهَا كُلُّ حَدٌ لِسَانٍ
فَسَدَّتْ وَأَوْسَطَهَا مِنْ الطَّلِيَانِي

فإن قيل إن الأذناب والرءوس هنا كناية عن أوائل الألفاظ وأواخرها كأداة المضارعة وأل التعريف ونون الوقاية، وهذه باقية على الأصل فلم وصفتها بالفساد، قلت: إن أداة المضارعة مكسورة عندهم على كل حال، وكذا أداة التعريف، والضمير غير ظاهر، فإنهم يلفظون به كالواو، ويحتمل أيضاً أن يكون «فسدت» دعاء في المعنى، ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية وجملتها وتأليفها، ولا سيما في الأمور المتعارفة كما ذكر، فقد ذهب عنهم مرادف الأب، وإنما يقولون «مسار» بالإمالة، وكأنها محرفة عن «موسيو» بالفرنساوية فإن حق التلفظ بها أن يكون «مونسيور»، وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية صباحاً ومساءً، فيقولون: «بون جورنو عليك» ولعل سبب ذلك أن المسلمين لما افتتحوا جزيرتهم كانت التحية بينهم: «السلام عليكم» وكان استعمالها مقصورةً عليهم كما هو في بلادنا، فلم تعرف بين الأهلين، وليس هذا بأعجب من ذهاب تحيات العرب العارية عن المستعربين، وقولهم الآن: «صباح الخير» الظاهر أنه مولد، ومن الغريب أن بعض أعيان المالطيين يحاكون الإفرنج في أطوارهم وهيئاتهم، حتى إذا نطقوا بلغة أنفسهم زال عنهم ذلك الروء، وانجلوا ذلك الإبهام، وإذا تكلموا خلطوا جملة إيطالية بآخرى من لغتهم، لكن هذه هي الغالبة، فإنها لغتهم في الطفولية، وقد أخبرني أحد فضلاتهم أنه أقام مدة طويلة في إيطالية، فكان حينئذ يقدر خواطره وأفكاره بلغة أهلها، ثم لما رجع إلى مالطة لم يلبث أن عاد إلى تقديرها بلغته فصدق عليه قول الشاعر:

كل امرئ راجع يوماً لشيمته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

وأغرب منه أن المطلين يأنفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينها وبين لغتهم، وهو عين السبب الذي يوجبه عليهم لكونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعنة، ومع أن الذين يعاملون منهم أهل العربية كثير، والقاطنين في بلادهم هم أكثر، فما أحد منهم يهمه أن يتعلم العربية قراءة وكتابة، على أنك تجد في جميع بلدان أوروبا أفراداً يدرسونها حق دراستها.

ثم إن آراء الناس لما كان من شأنها التفاوت والتباين في جلاء الحقائق، ولا سيما إذا كان محل البحث غير مننسق على و蒂ة واحدة، وكانت اللغة المالطية تشتمل على ألفاظ من لغات مختلفة اختلافة فيها الأقوال والأحكام، فزعم بعضهم أنها فينيقية؛ لوجود كلمتين فيها منها وهما البير والصيد، كما مر بك في أول هذا الكتاب، وزعم آخرون أنها حبشية؛ لوجود لفظة واحدة فيها وهي المنبر، فإن معناها عندهم الكرسي الذي تلد

عليه المرأة كما هو في الحبشية، وهو وهم على ما تحققته من أهل اللغة المذكورة، وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر أن كثيراً من الكلام العربي الذي بقي في أهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز؛ إما بذكر اللازم وإرادة الملازم، وإما بتخصيص العام وتعميم الخاص. كقولهم مثلاً: وحلت للوقوع في الأمر الصعب، وأصله: الوقع في الوحل خاصة، ونحو الطلاب للمتكفف، وهو اسم فاعل للبالغة من طلب في كل أمر، ونحو معلوب للنجيف وهو اسم مفعول من غالب وهو لازم له غالباً، وفتيت أي قليل، وهو من فت الشيء إذا كسرته وصغرت جرمها، وأشباه ذلك مما لا يحوج إلى برهان، فيكون النبر على هذا مما عدل به عن وجه استعماله تجوذاً، كما أنه عدل به أيضاً في العربية الفصحى من التعميم إلى الخاص، فإن معنى النبر في اللغة الارتفاع، فالنبر على هذا آلة الرفع أو محله، ثم خصص عند قوم بمحل الخطبة، وعند غيرهم بكرسي الولادة، وإنما قلت آلة الرفع أو محله، فقد قال الإمام الخفاجي في شرح «درة الغواص» ما نصه:

هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الآلة التي تتناول باليد وغيرها،
فيتعين كسر الأول إلا شذوذاً، فيفتح بعض من الثاني كمرقاة ومنارة؛ لأنه من
وجه آلة ومن وجه مكان، وهو فرق لطيف قل من تنبه له أو نبه عليه. ا.هـ.

والحاصل أنه لا شك في كون اللغة المالطية عربية، ولكنني لست أدرى أصل هذا الفرع أشامي هو أم مغربي، فإن فيها عبارات من كلتا الجهات، والغالب عليها الثانية، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى، فيقولون مثلاً: القدس والقديس والتقرير والأسقف، وما أشبه ذلك مما لا يفهمه أهل المغرب، ومن المالطيين من يقر بأن لغتهم غير فينيقية ولا حبشية، ولكن لا يكادون يقررون بأنها فرع العربية مكابرة وعناناً، ولا يخفى أن كل لغة في العالم لا بد وأن يدخلها بعض ألفاظ أجنبية؛ إما للحاجة إليها، أو للتقارب أهل اللغتين واحتلاطهما كالعرب والفرس مثلاً، والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق، وهذه اللغة العربية مع سعتها وغزارتها موادها وكثرة تصاريفها لم تخُل عن ألفاظ بعضها من الفارسية وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية، ولم يقل أحد إن العربية فرع عن هذه اللغات، فكيف لعقلاء مالطة أن يقولوا إن لغتهم فينيقية بسبب وجود كلمتين منها فيها، وأصبح من ذلك أنهم يظنون أن فساد لغتهم وانعكاسها عن أصلها العربي ليس من العيب في شيء؛ قياساً على أن الطليانية انفسخت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الأصل، وهو مدفوع

بأن العربية لم تنقض دولتها كما انقضت اللاتينية حتى تستقل المالطية بقليل موادها، وبأن المالطية لم يؤلف فيها شيء إلى الآن من كتب العلم والأدب ولم يتكلم بها أقوام؛ فالفرق واضح، والحاصل أنهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها ضرورة أنها لم يطاقوا على محاسن أصلها الذي حلوا عنه، نعم إن أهل الشام ومصر والجaz وغيرهم قاصرون عن اللاحق بأهل العربية الفصحى، ولكن ما منهم إلا من يشعر بقصوره عنها، ويدري عظم التفاوت بين الطرفين، وكل يود لو يصل إلى درجة الكمال في معرفتها، وكانت ذات يوم سائراً مع جماعة منهم فأخذ أحدهم يصف لغتهم، وجعل من محاسنها اجتماع الألفاظ العجمية فيها، وأنه يقول إنها انتفت ما شاق وراق، فمثلاً مثل العجوز التي رأت زوجها يزني.

ولشدة تعصب الماطيين على أهل اللغة العربية، وتشنيعهم عليهم؛ إذ كان منتهى السب عندهم أن يقولوا: عربي، كان الإنكليز وسائر الإفرنج أقرب منهم إلى تعلمها غالباً، ولو كان عند أولئك ركن منها عظيم، وذلك أن الماطي العنيد إذا سمع في العربية مثلاً لفظة خرج وكانت عادته منذ نطق أن يقول حرج، فلا يرى في ذلك كبير فرق، ولا يرى أن نقطة صغيرة تقوم المعنى أو تفسده، بخلاف من يتعلم من أول الأمر أن يقول الكلمة على حقها، وكانوا إذا سمعوني وصاحببي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين إلا عجمة في لغتهم يعنوننا، ولا يخطر لهم ببال أن لغة لم تضمن بطون الأوراق، ولم تضبطها الأحكام النحوية لا تكفي النوع الإنساني، وقد تصدى مرة أحد مؤلفيهم إلى تأليف كتاب نحو فيها، فكتب بعد طالعته ألفاً بتتو اللغة الماطية، ثم ذكر العين بعد الألف فكان خللاً؛ لأن جميع اللغات التي تبتدئ بهذا العنوان تكتب فيها الباء بعد الألف، فلما وقفت على ذلك كتبت له:

يا قائلأً ألفاً بتتو وبعدها ألف عين إن كان ذا البدء ميناً فكل ذا النحو مين

ويقال إن جميع اللغات القديمة والحديثة تبدأ بالألف إلا الحبشية فإنه فيها الحرف السابع عشر، والظاهر من ترتيب حروف المعجم في العربية والسريانية والعبرانية أنها؛ أي العربية لا ارتباط بينها وبينهما.

وأهل مالطة يلفظون الغين أينما وقعت عيناً، والخاء حاء، والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة، ويسمون الألف في نحو قال وباع الضمة، وهو غريب فإن الضم أيضاً عند الهمج من أهل الشام، وينطقون بالضاد دالاً وبالطاء تاء، ولا يلفظون العين إذا كانت

متطرفة أصلًا، فيقولون: تلا أي طلع، وسمأ أي سمع، ويقال: إنهم كانوا في القديم يلفظون الثناء على حقها.

ومما يوضح منه أن الفلاحين إذا خدموا أهل فالتة غيروا لهجتهم فلفظوا الغين عيناً والخاء حاء توهم أن لغة هؤلاء هي الفصحي، وأهل غوش يميلون الألف في نحو فيها ومنها، والجميع ينطقون بالجيم نطق أهل الشام إلا في قولهم جدي فإنهم يلفظونها كأهل مصر، والظاهر أن حق النطق به أن يكون قريباً من مخرج الشين كما في لغة أهل الشام.

ففي المزهر في الفائدة الخامسة من النوع التاسع، وهو معرفة الفصيح، ما نصه:

قال الشيخ بهاء الدين في عروس الأفراح، قالوا: التنافر يكون إما لتباعد الحروف جدًا أو لتقاربها، فإنها كالطفرة والمشي في القيد نقله الخفاجي في سر الفصاحية عن الخليل بن أحمد، وتعقبه بأن لنا الأفاظاً حروفيها متقاربة ولا تنافر فيها لفظ الشجر والجيش والضم، وقد يوجد البعد ولا تنافر لفظ العلم والبعد، ثم رأى الخفاجي أنه لا تنافر في البعد وإن أفرط، بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطاً للفصاحية. ا.هـ.

وقال الأشموني عند ذكر الإبدال: الشين أبدلت من ثلاثة أحرف: الكاف والجيم والسين، فالكاف نحو أكرمتك قالوا أكرمتش وهي كشكشة تميم كما تقدم، والجيم كما في قوله إذ ذاك حبل الوصال مدمش أي مدمج. قال ابن عصفور: ولا يحفظ غيره، وسهل ذلك كون الجيم والشين متفقين في المخرج ا.هـ.

إلا أنه يظهر أيضًا أن الجيم كثيراً ما تبدل من القاف والكاف مما يؤيد مذهب أهل مصر، فمن إبدالها من القاف قولهم: قف العشب وجف، والمقداف والمداف، وقلمه وجلمه، والقشم والجسم، وشق وشج، والقرقس والجرس، وقص وجز، وتلتف الحوض وتلحف، والشرق والشرج ... ونظائر ذلك كثيرة، ومن إبدالها من الكاف قولهم: كد وجد، وكهد وجهد، وأ肯 وأجن، وكرع وجرع، وكلبة الزمان وجبلته، والمكالحة والمجالحة، وعكر به وعجر، والركس والرجس ... وما أشبه ذلك. فعلى هذا يكون استعمال أهل مصر له صحيحاً، ويؤيد ما ورد في المزهر في النوع الرابع عشر، قال: المهم على ضربين؛ ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة، وذلك كجيم تؤلف مع كاف، أو تقديم كاف على جيم، وكعین مع غين، أو حاء مع هاء ا.هـ.

وأيضاً فإنهم يعربون مرة بالجيم وأخرى بالكاف، مثل الأول: الديزج والذينيج، ومثال الثاني: الرستاق والفرزدق، وربما أبدلت من الحرفين معًا قولهم: سهجه وسهجه وسحقه، والذي يظهر لي أن ذلك لغة لبعض العرب، غير أن أهل الصعيد والمغاربة وأهل الحجاز ينطقون بالجيم كأهل الشام. ثم إن أهل غودش ينطقون بالأحرف الحلقية على حقها، إلا أنهم يكسرن ما قبل الواو الساكن، فيقولون: مكسور ومفتوح، ويضمون ما قبل الألف، نحو: قاعد ... وهلم جرا، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهي لغة ربعة وقوم من كلب كما في المزهر في النوع الحادي عشر وتسمى الوكم، ويقولون أيضًا: منهم وبينهم، وهي أيضاً لغة كلب، ومن سفهاء المالطيين من يدعى النظم بلغتهم هذه الفاسدة، ويقال له: عندهم التقبيل، فمن ذلك قولهم:

سایر نسافر ما ناحدکش معی
الله یظمک فی المحبه تیعی

ین حنینا سایر نسافر
مور وھیا بالسلامه

وبقي هنا حل ما أعمق من الألفاظ المنكرة، قوله ين بمعنى أنا، وحنيني بمعنى حبيب منادى ممحوذف منه حرف النداء، ومن الغريب هنا أن المنادى إذا كان عظيمًا خطيرًا يدخلون عليه أدأة النداء من الطليانية فيقولون: أو مولاي، وإذا كان حقيرًا أدخلوا عليه أدأة النداء من العربية، فيقولون: يا تفاح يا عنب، وقوله: ساير نسافر، هو مثل قول عامة مصر والشام: رايح أسافر، وما ألطف هنا عبارة الإمام الزمخشري في شرحه لامية العرب؛ إذ قال: وأما المستقبل وإن كان معذومًا في الحال، ولكن هو مار إلى الوجود، والنون في نسافر علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فإنه نسافرو، وهي لغة أهل المغرب، والشين في ناحدكش لازمة عندهم بعد النفي، والاستفهام كما في العربية الدارجة، ومن أهل الشام من يراها أيضًا لازمة ولو بعد الجملة، فيقولون: ما هو كتيرش فكان إبرازها ضربة لازب، وممعي أصله معنى، ومور فعل أمر من مار أي ذهب، وهو في اللغة كذا، وهيا اسم فعل بمعنى أقبل، وذكره صاحب القاموس مكررًا، وفسره بأنه زجر وهو غريب، ولا يبعد أن يكون أصله هي، ويطربني ما روی عن ذلك الإعرابي الذي سمع رجلاً يدعوه آخر بالفارسية يقول له زود، فقال لأصحابه: ما يقول؟ قالوا: يقول عجل، فقال: ألا يقول هي هلك تخرج أحجية بدعة، ويظنك أصله إما يزمك أو يضمك، وما قبل الضمير المنصوب مضموم، وهذا من بعض آثار محاحسن العربية

القديمة في هذه البلاد، والباء من المحبة مفتوحة فتحة مشبعة، وكذا في كل مكان به
علامة التأنيث نحو طيبة وكبيرة، وهي أيضاً من تلك الآثار، وأحسن من الإمالة.
فأما تيعي فقد خبط فيها بصرؤهم خبط عشواء، وذلك لأنهم يدخلون بين المضاف
وال مضاد إليه لفظة تا، فيقولون مثلاً: الدار تا الطبيب، فمنهم من زعم أنها من الطليانية،
فإن المضاف فيها يُفصل عن المضاف إليه بلفظة دي، ومنهم من زعم أنها من السريانية
فإنها فيها كذلك، ثم إذا أضافوا تا إلى الضمير بربت معه العين، فيقولون: تاعنا، فلهذا
لم يدركوا أصلها، وال الصحيح أنها محرفة من متعان، فإن أهل المغرب يدخلونها كثيراً في
الإضافة، ويبتدئون باليم ساكتة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقسيير اللفظ، وربما
قالوا نتعان، بالنون ساكتة أيضاً، فأما العين: فإن الملاطين لا يكادون ينطقون بها إذا
وقدت آخر الكلمة، فيقولون تلا وقل في طلع وقلع، كما ذكرنا آنفاً، ويحذفونها أيضاً
إذا اتصل بها ضمير، فيقولون: طليت وقليت جريأاً على حذفها بغير اتصال الضمير،
وقلب العين ألفاً أو همزة من أساليب العرب كما في تفصي وتقصع، وأقنى وأقمع، والشما
والشمع، وتكتأً وتكمكع، وزقاء الديك وزقاعة، وزأراً وززع أي حرك، وبدأ وبعد،
وامرأة خباء وخبعة؛ أي تخبيء تارة وتبدو أخرى، والخباء والخباع، والخبء والخبع
... ونظائر ذلك كثيرة حتى إنهم قلبوها متوسطة كما في تأرض وتعرض، ودام الحائط
ودعمه، فأما تلين الهمزة ألفاً فأشهر من البنية عليه، ومن حرف أيضاً لفظة متعان أهل
مصر؛ فقلبوا الميم باء، وهي لغة لبعض العرب كما في درة الغواص، فيقولون با اسمك في
ما اسمك، واعلم أن فصل المضاف عن المضاف إليه بأداة أسلوب حسن يفييد التنصيص،
وذلك ما إذا كان المضاف منعوتاً بنعت صالح لأن يعود على المضاف إليه أيضاً كما في
عذاب الله العظيم، بخلاف ما لو كان بينهما فاصل، والأرجح رجوعه إلى المضاف كما في
المغني. ومننظم الملاطين أيضاً، وهو معنى حسن ولكنه مكسو قبيح اللفظ والسبك:

المحوب تا قلبي سافر
جعلتلو بدموعي البحر
ليلى ونهارى نبكىح
وبالتهيدات تا قلبي الريح

وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب:

والريح تبتلع الزفير وترسل والبحر قد خفت عليك ضلوعه

ومثله قول القاضي الفاضل:

كأن ضلوعي والزفير وأدمعي طلول وريح عاصف وسيول

وقول إبراهيم بن سهل الأشبيلي:

إذا أنسنت ركبًا تكفل شوتها بنار قراء والدموع بورده

ومثله ما ذكره علي بن ظافر في بدائع البدائه:

شعاعها من فؤادي وبحرها من دموعي

وبقي هنا إصلاح فاسد اللفظ، فنقول قد مر شرح تا أنها تكون بين المضاف والمضاف إليه، ونبكيح: الحاء مبدلية من الهاء، وهي لغة للعرب أيضاً، فيقولون المليه والمليح، والهاضوم والحاضوم، والمده والمدح، وتناء وتناح، وشقه النخل وشقحها.

وقوله البحر حرفة جار على القياس من أن الاسم الثلاثي الذي أوسطه حرف حلق يجوز الفتح فيه نحو شعر وشعر ونهر ونهر. قال الإمام الخفاجي في شرح درة الغواص قال ابن جنى في الحتسب:قرأ سهيل بن شعيب السهمي جهرة وزهرة، في كل موضع محركاً، ومذهب أصحابنا في كل حرف ساكن بعد فتح لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر، ومذهب الكوفيين أنه يجوز تحريك الثاني؛ لكونه حرفاً حلقياً قياساً مطرداً كالبحر والبحر، قال: وما أرى الحق إلا معهم. ا.هـ.
ومما أنسديه أحدهم بمحضر جماعة:

يناشقت نجى فوق سدقتك
نجى شبيهه تا عصفور
نطفي المصباح بجوانحي
نعطيك بوسه ونرجع نمور

فقلت له: لو قلت نأخذ بوسه لكان أولى؛ لأن من يأخذ هنا خير من يعطي، فلم يفهم واستعادنيها قاعدتها عليه، فلم يفطن لها لا هو ولا هم أيضاً؛ لأن المعاريف والمطارات عندهم في كсад عظيم، والمراد بالسدة عند الملاطين نفس الفراش، وهو في اللغة باب الدار، وعندى أن قدماء الملاطين كانوا همجاً يرقدون على الأبواب، فسموا

كل مرقد سدة، كما أنهم سموا كل مكنسة مسلحة، وهي في الأصل آلة للسلح، وهكذا كانوا يستعملونها، ثم أطلقوها على كل ما ينطوي به المكان، ولهذا نظائر كثيرة إلا أن أهل طرابلس الغرب يستعملون السدة أيضًا بمعنى الفراش، وقد ذكرت يوماً لأحد من يتوسم فيه الأدب من أهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصًا التورية، فقال وكذا هي الملاطية، وذكر هذه الجملة وهي عندك تينا تا اللحم، فقال: تينا هنا يحتمل أن تكون مضارعًا من تيته يريد من آتيته أو أعطيته.

وتا اللحم يحتمل أن يكون معناها ما يخص اللحم؛ أي ثمنه، وعندك هنا إغراء، وعلى المعنى الثاني يحتمل أن تكون لفظة تينا مفرد التين، وتا اللحم مضاد إليها؛ أي تينة لحم، والمعنى عندك تينة لحم كنایة عن الاست، وإغراؤهم بعند ليس على القياس، فإنهم يدخلونها على الأفعال خاصة، ومن سخف تورياتهم أيضًا قولهم: علاه من غير ماء، يوهمون به غلاء السعر.

ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم دار نادية وحقها ندية، ولكنها أفسح من قول أهل مصر والشام ناطية، وقابلة أي داية، وخطر ومخاطرة أي رهان، وغرفة أي عليه، وقولهم في الدعاة: عمروا ونمروا وبدا لي أي عن لي وتطاول ويشرف وصديد وبطحاء، وتجالدوا وهو أفسح من تعاركوا، وزفن أي رقص، وبو قال وهي أفسح من قول أهل الشام شربة أو نعارة، ويماري أي لا يقنع بالحق، ويشرق بالماء ويستقصي، وفرصاد للتوت، وسفود وأهل الشام يقولون سيخ وشيش، وقد ورد في كلام النابغة الذياني بقوله سفود شرب نسوه عند مفتاد، وتقزز أي تباعد من الأدناس، وعسلوج للقضيب، وجلوز وهو البندق الذي يؤكل ... ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب، وبهذا يترجح عندي أن أصل الملاطيين من المغاربة، ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع أحيانًا نحو يحسبك وبيذلك، وقولهم: وعدة وزنة، وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران، ولذلك سلم فأوهما كما قال الحمامي:

وإذا أتى من وجهة بطريقة لم أطلع مما وراء خبائه

قال الشارح: ومن روى من وجهه، فمعناه من سفره الذي توجه إليه، ويروى لم أطلع ماذًا وراء خبائه، ومعنى البيت: لم أعرض نفسي عليه مترعرفًا ما جاء به من سفره ليشركني في طرفه، ويجعلني أسوة نفسه.

ومما يضحك من كلامهم قولهم: هذا رجل من الكلاب وامرأة من الحمير، يعنيون ذكرًا وأنثى؛ لأنه ليس عندهم لفظ مرادف لهما، فيضطرون إلى هذا التعبير القبيح، ويقولون عمل اللحية أي حلق وجهه، وكذلك إذا حلق شعر عانته أيضًا، ويقول أحدهم للآخر عند الإبابة والإفصاح بين نكلمك بالمالطي، فكأنه يقول إن هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى للسامع محل الشك فيه، ويكترون من جملة: قال لي، يكررونها في أثناء الكلام مراراً، وإذا قصدوا توكييد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فأكثر، فيقولون ما ريتوش قط قط قط قط قط، وما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز؛ أي بس، وحاده أي أخذه كله كله كله، وما يسوى شي شي شي ... ونحو ذلك.

ومن أوزان كلامهم: فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة. قال شارح الشافية: اعلم أن مجيء المصدر على وزن فاعلة أقل من مجيءه على وزن مفعول، كالعاافية نحو عافاه الله عافية، والعاقبة نحو عقب فلان مكان أبيه عاقبة، وكالباقية كقوله تعالى: ﴿فَهُلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي بقاء، وكالكافية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِوَقْعَتِهَا كَافِيَةٌ﴾ أي كذب. أ.هـ. وأهل الشام يقولون يطلع بالطالع وينزل بالنازل، ومن ذلك وزن فعل بالضم نحو سدد وصرر، وهو نادر، والأسماء الثلاثة التي أوائلها ضمة يتبعونها ضمة أخرى نحو عمر وشغل، وهو أيضاً جاري على القياس، وكذلك التي أوائلها كسرة يتبعونها كسرة أخرى نحو عجل ورجل.

ومن قبيح عادتهم في الكلام، هم وسائر الإفرنج، توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محااشاة، فيقولون مثلاً: إني أحبك ما دمت أنت حياً وهذا الحر يقتلك، وهذا النبات يقطع لك مصارنك؛ أي مصارينك، وهذا التراب يعميك، وإذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضواً عضواً، أو يقول لك العائد لا تله عن دائئك فإنه قتال ... وغير ذلك مما يقتضي فيه الإطلاق، ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء: «حبك الشيء يعمي ويصم» ولم يقل يعميك ويصمك وإن يكن المعنى عليه.

فأما إمالة صوتهم عند الكلام، وهي التي تسمى الإفرنج أمفازس، فغربيّة على من لم يتعد سمعها، فإن لهم مدًّا في الصوت وخفضاً غير مألف لأهل العربية، حتى إن الإنكليز المولودين بمجالطة يجرون هذه الإمالة في لغة أنفسهم انعداء من المالطيين، وقد يعد هذا النوع عند الإفرنج من لوازم الفصاحات، ولكن ليس كذلك الذي يجريه المالطيون فإنهم فيه مشطون، وهو يكاد أن يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى أو لعله هو اللهجة، وقد لاحظت في أثناء قراءة المشايخ أنهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويًّا فيما يستقبلون، فكأن هذا المد ضرب منه.

ومما يضحك أيضاً أن للمالطيين لازمة في الكلام يكررونها، وهي سميتش حرفة عن سمعت فعلًّا ماضيًّا، والشن لازمة عندهم بعد الاستفهام كما هي بعد النفي، ولما كان الإنكليز يسمعونها منهم مرارًا جعلوها علمًا على من يجهلون اسمه عند النداء، وعلى الولدان الذين يخدمون على الطعام، ثم إن بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو حرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم، وبقوا محافظين على ما عندهم منهم خلًقاً بعد خلف، وهؤلاء الإنكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات جميعاً وأشهرها، وما تهيا لهم أن يعجموها عند المطليين. نعم، إن الخاصة منهم يتعلمونها، ولكن ليسوا عليها بمطابعين، فإن حماوراتهم بين أهلיהם إنما هي بالمالطية لا غير، وليس الطبع كالطبع ولا الكحل كالتكلح، ويقال إن الذي تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة، مع أن الذي جمع ذلك جرى على طريقة الإفرنج من أنهم يقيدون في كتب اللغة جميع الألفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والألة والاسم المنسوب ... ونحو ذلك، وإلا لكان هذا القدر باعتبار أنه مواد كافياً في المحاورات للإفصاح عما في الخاطر، فأما في الكتب فلا، ولا أحسب الكلام المستعمل الآن في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر، غير أن أهل الشام، فيما أظن، أكثر مواد من أهل مصر كما أن هؤلاء أحسن منهم نسق عبارة، والله أعلم.

